سومرست موم

الأمطار

رواية

تقديم ومراجعة

د. منصور عبد العزيز

الكتاب: الأمطار (رواية)

الكاتب: سومرست موم

تقديم ومراجعة: د. منصور عبد العزيز

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣



http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

موم، سومرست

الأمطار / سومرست موم، تقديم ومراجعة: د. منصور عبد العزيز

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١١١ ص، ١٨*٢١ سم.

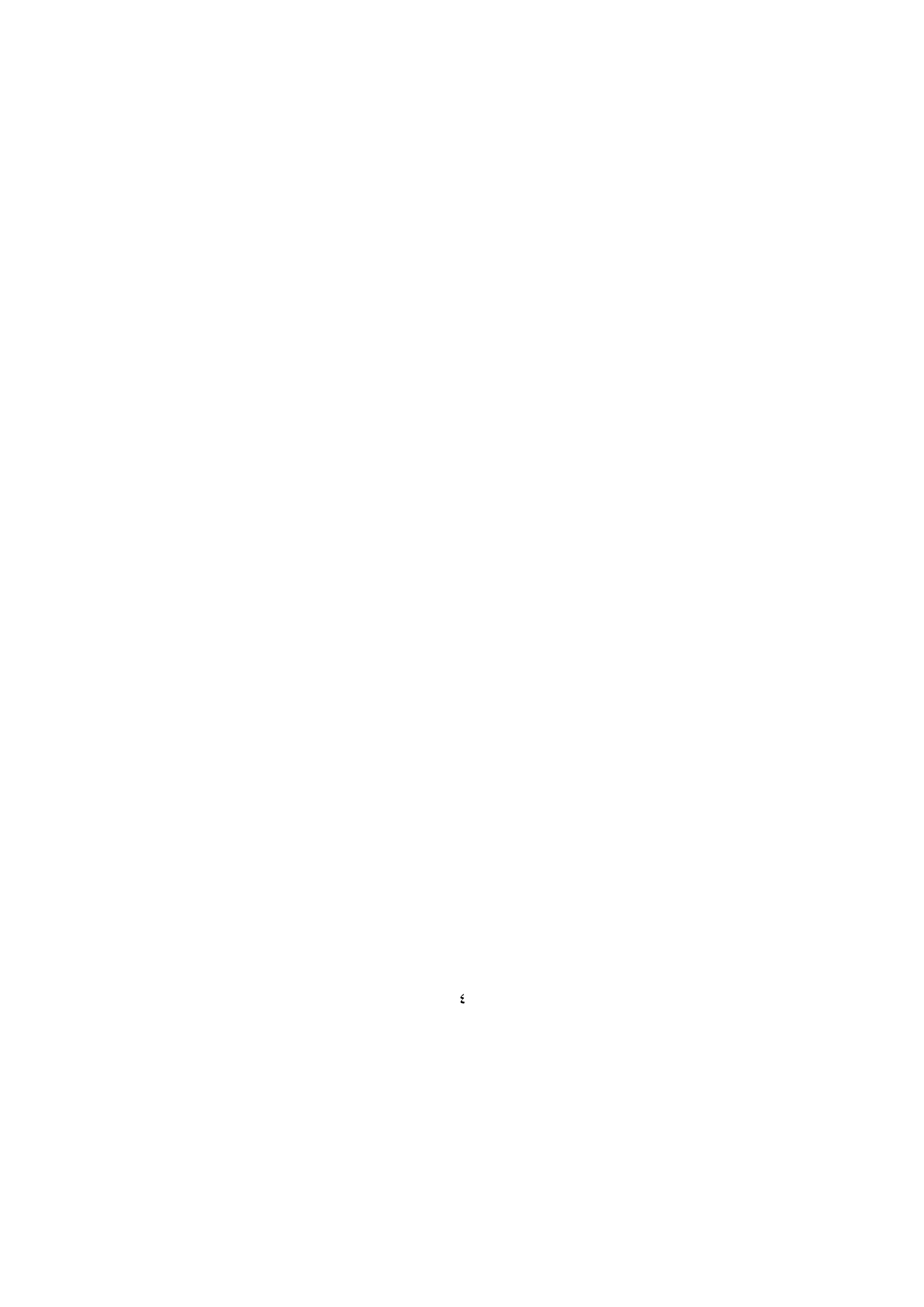
الترقيم الدولي: ٠ – ٥٤٧ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ١٣٨٠٣ / ٢٠٢٢

الأمطار

رواية





تقديم

"أدرك أن دافيدسون قد تدله في حب هذه المرأة، بقدر ما غالى في اضطهادها.. أدرك أنه كان يلقي بنفسه بين أحضان المعصية في الوقت الذي كان يجاهد فيه لإنقاذ هذه المرأة من براثنها. وأدرك أن الرجل الذي كافح لينقذ البغي من ظلمات الإثم، وليطهرها من أدران الرذيلة، قد وهن منه العزم في نهاية الصراع.. فاستسلم هو نفسه للخطيئة.. ثم أبت عليه نفسه بعد ذلك إلا أن يكفر عن ذنبه بدمه".

هذه هي النهاية المؤثرة التي أرادها الروائي الإنجليزي الشهير "سومرست موم" لتحفته الفنية «الأمطار»، والتي تدور في الجزر الاستوائية حيث فرض قس متعصب سيطرته باسم الرب. على غانية لعوب وحاصرها حتى استسلمت له، ثم وقع في الخطيئة معها (كان يشتهيها طيلة الوقت دون أن يدري) ومن ثم انتحاره وصراخ الغانية أن كل الرجال خنازير.

هكذا أراد هداية الغانية التي رآها ضالة – من منظوره هو الضيق– ولأن إيمانه كان زائفا فقد وقع في الخطيئة وعاقب نفسه بالانتحار.

يثير سومرست موم في هذه الرواية قضية أثيرة عنده، عالجها مرارا في أعمال عديدة، وهي قضية الدين وعلاقة الإنسان بالخالق سبحانه وتعالى، ومن هذه الأعمال "حد الموسى"، و"عبودية الإنسان"، و"القناع الملون"،

و"الخطيئة السابعة" والتي تدور في الملايو إحدى مستعمرات صاحبة الجلالة وأبطالها الطبيب المثقف الذي أحب امرأة تافهة العقل وتزوجها ثم تورطت في علاقة غير شرعية مع نائب الحاكم البريطاني والذي هو رجل نذل وغد ولكنه يروق للنساء (وكل الأوغاد يروقون للنساء!) وكيف تخلى عنها عندما اكتشف زوجها العلاقة؟ ووضعها أمام خيارين: الطلاق إذا تعهد العشيق بالزواج منها أو الذهاب معه إلى منطقة وباء كوليرا.

وبالطبع تخلى العشيق عنها بدم بارد، لتجد نفسها مجبرة على الذهاب إلى منطقة الوباء لتعيد اكتشاف ذلك الزوج النادر المتفاني والذي يعرف الكل قدره باستثنائها. ولكنها برغم كل شيء تجد نفسها غير قادرة على حبه. وتنتهي الملحمة بتغير نظرتها إلى الحياة كلية بعد أن شاهدت الموت في الوباء الكاسح. وتعرف أن زوجها يريد الموت فيتهاون في احتياطات الوقاية من الكوليرا، ليرحل الرجل النبيل وتهتف له في لوعة أنها عرفت قيمته وأنها تحبه! فيتقلص وجهه من التقزز حينما يسمعها تنطق كلمة الحب في هذا الموضع. ثم يموت لتعود إلى الملايو، وقد أصبحت بطلة قومية، ويستضيفها الوغد القديم بحكم منصبه، فإذا بها تستسلم له مرة أخرى رغم احتقارها له ولنفسها، ولكن العشق بلا كرامة كما قلت منذ قليل. وتعود إلى وطنها إنجلترا لتحاول أن تعيد اكتشاف ذاتها من جديد.

الملحد مؤمنا

وليام سمرست موم (٢٥ يناير ١٨٧٤ – ١٦ ديسمبر ١٩٦٥)

روائي وكاتب مسرحي إنجليزي كان من أشهر كتاب بداية القرن العشرين ومن المعروف أنه كان ملحدا في مرحلة ما من حياته، ويرجع إلحاده لسبب غريب جدا، وهو أنه كان طفلا شديد التصديق لرجال الدين، وكانت قدمه تعاني من عرج بسيط وتشوهات في العظام، وحينما كان يتردد على الكنيسة في صباه الباكر كان يشكو حاله للقساوسة فيقولون له إنه لو دعا الله بصدق، فإن الله سيشفي قدمه!

وقد كان. في كل ليلة يبتهل في الدعاء ويوقد الشموع ويذرف دموعا كثيرة. وينام وهو لا يشك أنه حين يستيقظ في الصباح سوف يجد قدمه وقد شُفيت. وللأسف فإن الصباحات توالت وقدمه على حالها، كما هى، فما كان منه إلا أن فقد إيمانه بالخالق تماما!

هل رأيتم إلى أى حد يؤذى رجل الدين دينه بتقويله ما لم يقل؟! إنها الحماسة المؤذية التي تؤدى أن يفقد الدين مصداقيته.

نفس القضية يعالجها في «الأمطار» هذه الرواية المهمة أدبيا وإنسانيا التي نصدرها اليوم للتذكير بأديب كبير كان في عصره واحدا من أشهر وأهم أدباء العالم، لكن اليوم ربما طوته قليلا دوائر النسيان، ولذلك نذكر القارىء بسيرة هذا العلم الكبير.

ولد " وليام سمرست موم" في باريس من أبوين انجليزيين في شهر يناير عام ١٨٧٤م، وكان والده يعمل مستشاراً قضائياً للسفارة البريطانية في باريس، "موم" سليل أسرة اشتغل أكثر أفرادها بالقانون لأكثر من قرن من

الزمان، ويتحدث موم عن أسلافه هؤلاء، فيقول أن صديقاً عجوزاً له حدثه عن جده – جد موم – فقال أنه كان من أقبح الناس خلقاً!. يقول موم:"فلما سمعت ذلك ... ذهبت إلى مقر جمعية القانون، حيث يحتفظون هناك بصورة لجدى، فوجدت أنه مقبول الوجه .. هنا أيقنت أن الرسام الذي صور له هذه اللوحة أراد أن يتملقه، فأبرزه في مظهر مقبول".

وقد كان مصابا بداء السل الرئوي الحاد والذي منعه من استكمال أكبر مخاطرة في حياته وهي العمل مع المكتب السادس البريطاني (المخابرات البريطانية آنذاك), بالتعاون مع المخابرات الامريكية وكانت المهمة عبارة عن العمل كجاسوس للمخابرات البريطانية داخل بتروجراد (روسيا) إبان الثورة الروسية على القيصر واستلام البلاشفة وعلى رأسهم لينين الذي أصبح بعدها الزعيم الخالد للشيوعية السوفيتية، وكانت مهمته تتلخص في جمع المعلومات لمصلحة المخابرات البريبطانية بخصوص السلام الاحادي بين روسيا وألمانيا والذي كان الشعب ينادي به ووافقهم عليه الحزب وكانت هذه (ثورة السلام والخبز)، ومن خلال موم تبين للبريطانيين والامريكيين أن لينين قد وصل لروسيا من خلال عملية القطار الحديدي التي نفذتها ألمانيا، وكان لموم أهمية كبرى في ايصال هذه المعلومات فبادرت المخابرات البريطانية لسحب سومرست موم من المنطقة وشن غارات على روسيا لاجبارها على استكمال الحرب وبعد ذلك تم عزل سومرست موم، فغادر اللعبة الاستخباراتية وعلى أثر ذلك كتب روايته المشهورة "كنت جاسوسا" والتي حققت صدمة كبرى للسوفييت.

طاف موم حول العالم مرتين الأولى في شبابه بعد أن هجر الطب وتفرغ للكتابة والثانية عندما تقدمت به السن وجلس ينتظر الموت بلا مبالاة وظلت قصصه حدث العالم كله وقرأها عشرات الملايين وقدرت ثروته بعشرات الملايين وفي عيد ميلاده التسعين قرر أن يعتزل الكتابة ٢٤ يناير ١٩٦٤ وقال يومها: "لقد جف قلمي وسأكتفي بالقراءة".

وقال: "إنني أشبه ما أكون بمسافر حزم حقائبه بانتظار السفينة التي ستبحر به إنه لا يعرف بالضبط متى سترحل سفينته ولكنه على استعداد للرحيل" هكذا كان ينظر الكاتب البريطاني الشهير "سومرست موم" للحياة.

وتحدث موم عن أبيه وأمه، قائلا: "مات أبواي في طفولتى .. ماتت أمى وأنا ابن ثمانية اعوام، ومات أبى وأنا ابن عشرة، فلا أكاد أذكر شيئا عنهما .. كل ما أذكره عن أبى أنه ذهب بنا إلى باريس، حيث كان مستشاراً قضائياً للسفارة البريطانية هناك. وكان في الأربعين من عمره حينما تزوج أمى، وكانت هي في العشرين .. وكان هو قبيح الخلقة إلى أبعد حد، بينما كانت أمي باهرة الجمال، حتى لقد كان أهل باريس يسمونها "الحسناء والوحش" لهذه المفارقة بينهما".

أشهر أعماله

تميزت كتاباتة بأسلوب ساخر غير متحيز، إلا أنه كان يتعاطف مع شخصياته هَجَرَ مهنة الطب بسرعة واتجه إلى الكتابة المسرحية ثم إلى كتابة

القصة القصيرة كما أبدع في الفن الروائي وفي الوقت نفسه كان ناقدًا يكتب المقالات الفاحصة العميقة في مجالات نقد الإبداع والفكر والحياة، ولم يكن سومرست موم روائيًّا فقط وإنما أبدع في عدد من مجالات الإبداع وقد كان كاتبا غزير الانتاج فقد كتب أكثر من مائتي قصة وأكثر من ثلاثين رواية أما مسرحياته فما تم جمعه منها بلغ ستة مجلدات، وله أيضا كتبٌ في الرحلات وفي النقد ولقد كان مهتمًّا منذ وقت مبكر من حياته بمحاولة فهم الطبيعة البشرية وكان يتأمل ويتابع ويلاحظ ويدون مشاهداته عن نماذج الناس وتقلُّبات البشر ومفارقات السلوك والظواهر والمفاجآت التي تنطوي عليها طبائع الناس... امتاز أدبه بوضوح الرؤية في الأداء والتعبير واتسم بتتابع الصور العالمية العامة وتجسيد النظرة الواقعية في فهم الطبيعة البشرية المتحررة من قيود الزمان والمكان.

لم يكف "موم" عن السفر والتنقل بين بلاد العالم ومشاهدة ما لم يره من الأماكن حتى بلغت عدد أعماله ما لايقل عددها عن ستين مؤلفا، ولم يتخصص موم في مجال أدبي محدد، بل كتب في كل شيء، وبدأ في الكتابة للمسرح لكن مسرحياته الأولى لم تلق نجاحاً ورفضتها المسارح؛ ثم حالفه التوفيق حينما وافق أحد المسارح على إحدى مسرحياته التي حملت عنوان "الليدي فريدريك"، وتم عرضها فنجحت نجاحاً عظيماً.

ومن أشهر أعماله الكوميدية مسرحية "الدائرة" عام ١٩٢١م، التي ترجمت إلى العربية، ومسرحية "الزوجة الوفية " عام ١٩٢٧م.

وكتب روايته الأولي حينما تخرج وعمل طبيب امتياز في مستشفى لامبث، حيث كتب روايتها لأولي "ليزا فتاة حي لامبث" سنة ١٨٩٧، وهو في الثالثة والعشرين من عمره، وكان قد عمل طبيباً على إحدى السفن المنطلقة إلى الشرق الأقصى، وكان خط سير الرحلة يمر بالبلاد التي طالما سمع عنها على جانبي البحر الأبيض المتوسط، فالبحر الأحمر، فبحر العرب، فالمحيط الهندي، وأغلب قصصه تدور في تلك البقاع القصية التي زراها وتأثر بأجوائها، فنجد أن رواية "القناع الملون" تدور أحداثها حول الجالية البريطانية في الصين، أما رواية "الرسالة" فتقع فصولها في إحدى جزر الهند الشرقية، وفي رواية "الساحر" نجده يتحدث عن طريقة الفنجان السحرية التي شاهدها في مصر، ومجموعته القصصية "شجرة الجازورينا" تدور حول إنجليز يعيشون في الملايو وبورنيو، وفي كتابه "الخلاصة" وضح "موم" الكثير من القضايا الفكرية والفلسفية التي شغلته في حياته وخلاصة تجاربه في الأدب والكتابة والسفر والترحال، مع الكثير من النصائح القيمة لشباب الكتاب. فكأن الكتاب وكما يشير عنوانه، هو خلاصة لتجربة سومرست موم ورحلته مع الإبداع والحياة.

وقد عاش موم حياةً طويلة وتوفي في ١٦ ديسمبر عام ١٩٦٥ في مدينة نيس في فرنسا، عن عمرٍ ناهز ٩١ عامًا. قضى منها ٦٧ عاما مع الكتابة والإبداع.

د. منصور عبد العزيز

الفصل الأول

حان وقت النوم على سطح الباخرة، فتأهب الجميع للدخول إلى إلى مضاجعهم للمرة الأخيرة إذ كان من المتوقع وصولهم إلى البر مع الصباح التالي.

وأشعل الدكتور ماكفيل غليونه، ثم اتكأ على حاجز السفينة وراح يحدق في السماء المظلمة، بحثاً عن النجم الذي اعتاد جوابو البحار أن يسترشدوا به إذا ما شاءوا أن يسعوا إلى الجنوب..

كان مغتبطاً مثلوج الصدر، إذ هو سيستقر في "آيبا" لاثني عشر شهراً على الأقل، بعد أن مكث في ساحة القتال عامين أصيب خلالهما بجرح استغرق اندماله وقتاً أكثر مما كان ينبغي لشفاء مثله من الجراح، ومن ثم كانت هذه الغبطة باعثة له على أن يستطيب الرحلة..

ووقف مخلداً إلى التفكير وما تزال دقات المعزف الصاخبة تدوي في أذنيه أثر حفلة راقصة نظمت لوداع بعض الركاب اعتزموا أن يغادروا السفينة في اليوم التالي، ليهبطوا ثغر "باجو- باجو"..

ولكن السكون ساد سطح السفينة أخيراً، وتبددت أصداء الضجة، مع رياح المحيط الهادي فخيم صمت شامل..

وما لبث الدكتور ماكفيل أن زايل مكانه، فسار إلى حيث كانت

زوجه تجلس في مقعد طويل إلى مستر دافيدسون وزوجه تجاذبهما أطراف الحديث.. واتخذ مجلسه تحت الضوء، ورفع قبعته عن رأسه فتبدى شعره أحمر اللون، متلاشياً عند المفرق الذي بدا جلده لامعاً قاني الحمرة.. وتراءى في حوالي الأربعين من عمره، نحيلاً، متغضن الوجه.. وإذا تكلم بانت اللكنة الاسكتلندية في لهجته، وانبعث صوته خفيضاً هادئاً، وظهرت دقته في تخير الكلمات وحرصه على أن يبدو أمام محدثه غزير العلم واسع المعرفة..

كان ثمة ود قد نشأ بين ماكفيل وزوجه، وبين دافيدسون –المبشر– وزوجه، لا لتلاؤم في الذوق والطباع، وإنما كضرورة أوجبتها الرحلة التي جمعتهم على ظهر سفينة واحدة، وأيدها ما اشتركوا فيه من سخط على أولئك الرجال الذين يقضون نهارهم ويصرمون ليلهم، في قاعة الجلوس بالسفينة، مكبين على المقامرة منصرفين إلى الشراب..

وما كانت مسز ماكفيل لتتحرر في الشعور بالزهو، إذ كانت وزوجها الوحيدين دون بقية ركب السفينة، اللذين حظيا بصداقة دافيدسون وزوجه.. بل حتى الدكتور ماكفيل –الذي كان خجولا وإن لم يذهب به الخجل إلى درجة البلاهة والغباء– كان يعترف –بعض الشيء– بهذه الخطوة..

ولولا ما نشأ عليه من رغبة في الجدل والنقاش، ما سمح لنفسه بأن يستثير زوجه –في هذا الصدد– حين قالت له وقد خلت إليه في مقصورتهما، وخلعت عنها كل ما كانت تتكلفه من مظهر:

– قالت لي مسز دافيدسون إأنها لا تدري كيف كان يتسنى لها ولزوجها أن يستطيعا هذه الرحلة لولا وجودنا معهما.. فالواقع أننا –كما ذكرت – الصديقان الوحيدان اللذان تقبلا صداقتهما دون بقية من تحملهم السفينة..

– ما كنت لأظن أن المبشر من الشخصيات العظيمة، حتى يسمح لنفسه بأن يحوط شخصه بمظاهر الترفع والتكبر على من عداه..

– ليس في الأمر شيء من الترفع والاستكبار.. إنني أفهم ما تعنيه مسز دافيدسون، وأرى معها أنه ما كان يجمل بها وبزوجها أن يختلطا بأولئك العابثين اللاهين الذين يقضون الرحلة في قاعة الجلوس بين الميسر والخمر.. ما كان الرسول الذي نزل بالدين الذي به يبشران، على مثل هذا التحرز والتشدد الذي به يتشبثان..

فغاظها منه هذا الاستخفاف برجال الدين وقالت:

– لقد طلبت إليك مراراً وتكراراً أن لا تسخر أو تهزأ بالدين.. فما كنت أحب مثل هذا الطبع منك يا ألك.. إنك لا تعني قط بتعرف مواطن الطيبة والنبل في نفوس الناس.

"فرمقها من طرف عينه دون أن يجيب. فقد تعلم خلال السنوات الطويلة التي قضاها في حياته الزوجية، أن لا شيء أجدى للاحتفاظ بالهدوء والوئام، من أن يدع زوجته صاحبة الكلمة الأخيرة في أي جدال يشجر بينهما..

وكان إذ ذاك قد سبقها إلى خلع ثيابه، فصعد إلى فراشه، واستلقى وهو يقرأ محاولاً اجتذاب النعاس إلى عينيه.

* * *

فلما صعد إلى سطح السفينة في اليوم التالي، تبين أنهم على قاب قوسين أو أدنى من البر، فراح يملي ناظريه بمرآه.

ولاح له الساحل كشريط عسجدي ينحو إلى الارتفاع حتى يغدو تلالاً تتوجها الخضرة اليانعة. وكانت أشجار "جوز الهند" الغليظة تمتد حتى حافة الماء تتخللها مساكن الأهالي الوطنيين، وقد أقيمت من الحشائش وفروع النباتات، وتتراءى بينها كنائس صغيرة ناصعة البياض.. وما لبثت مسز دافيدسون أن أقبلت فوقفت بجواره وقد ارتدت ثوباً أسود وأحاطت عنقها بقلادة ذهبية يتدلى منها صليب صغير..

كانت امرأة صغيرة الجسم، ذات شعر بني كئيب المنظر –عنيت بتنسيقه– وقد قبعت عيناها الزرقاوان الحادتان خلف عوينتين ثبتتا إلى أنفها بمشبك ذهبي صغير، وكان وجهها طويلاً كوجه النعجة، ولكنها كانت على عكس النعجة، لا تتراءى على محياها معالم البلاهة، بل ترتسم على قسماتها إمارات الذكاء المتقد، كما كانت في حركاتها كالطائر الخفيف النشيط، وكان أبرز ما يستلفت الناظر إليها، صوتها الحاد الرفيع يصك الأذن في رنين غير مستساغ، يستثير الأعصاب.

وقال لها الدكتور وعلى شفتيه ابتسامته المقتضبة الرفيعة:

– لابد أن هذا البر يذكرك بتلك البقاع التي استقررت فيها وزوجك واتخذتماها موطناً ومقاماً...

– لا، بل إن تلك تتألف من جزر منبسطة لا مرجانية، بركانية كهذه. ما تزال أمامنا عشرة أيام آخر حتى نصل إلى مستقرنا.

فقال مازحاً:

– ما أظن هذا الفارق يعدو عندنا ما بين طريقين متجاورتين في المدينة.

– هذه مغالاة في التشبيه، ولكن الفوارق تتضاءل فعلا بين المسافات في هذه البحار الجنوبية فتبدو الجزيرتان المتباعدتان كالطريقين المتجاورتين ومن ثم فأنت مصيب على هذا القياس.

فأرسل الدكتور ماكفيل زفرة واهنة، بينما تابعت حديثها قائلة:

– كم يسرني أننا لن نستقر هنا، فإنهم يقولون أن هذه الجزيرة من البقاع التي يعاني المرء المشقات في أداء أعماله فيها.. فإن كثرة مرور السفن بها يجعل أهلها غير مستقرين كما أن موقعها كمحط بحري يمكن لكثير من الملاحين ارتيادها وإفساد أخلاق الأهالي فيها باختلاطهم بهم.. أما في المنطقة التي نعمل فيها، فلا نلقى بين جنباتها مثل هذه الصعاب.. حقاً لا يخلو الأمر من وجود تاجر أو اثنين من الأوربيين، ولكننا نحرص

على مراقبة من نجدهم منهم وحملهم على السلوك القويم. فإذا أبى أحدهم أثرنا عليه حملة شعواء حتى ليسعده أن يخلف البقاع وينأى عنها فراراً من قسوة الحملة.

وأصلحت من وضع المنظار على أنفها، ثم ألقت نظرة شاردة على الجزيرة الخضراء وأردفت:

– إن على المبشرين هنا أعباء قاسية، ودوراً ليس بالسهل اليسير، وما أراني مستطيعة أن أفي الله ما ينبغي من شكر، إذ جنينا مشقة ممارسة واجبنا هنا.

كانت المنطقة التي عهد إلى دافيدسون بأعمال التبشير فيها تتألف من مجموعة من الجزر الواقعية شمالي "ساموا" تفصل بين الواحدة منها والأخرى مسافة واسعة، مما كان يضطره إلى التنقل بينها في قارب وكانت زوجه في فترات تجواله بين هذه الجزر تبقى في مركز البعثة لتمارس أعمال التبشير بدلاً منه وغاص قلب الدكتور ماكفيل بين ضلوعه وهو يتخيل أسلوبها في إدارة البعثة.. فقد كانت تتحدث عن الفساد المتفشي بين الأهالي الوطنيين في صوت لا تستطيع أن تسكنه قوة ما، بيد أن لهجتها كانت تزخر بالفزع والذعر... كانت فذة في رقة مشاعرها... وقد قالت له في بدء تعارفهما، وهي تحدثه عن هؤلاء الأهلين:

– لقد كانت الأساليب التي وجدناهم يتبعونها في عقد زيجاتهم – عندما نزلنا بالجزيرة للمرة الأولى– أساليب فظيعة بشعة لا أقوى على

وصفها لك.. ولكنني سأحدث عنها مسز ماكفيل فتقصها هي عليك.

واختلت بزوجه على سطح المركب بعد ذلك فاشتركتا في حديث طويل زهاء الساعتين كان يسمع خلاله -وهو واقف عن كثب- شهقات مسز دافيدسون تنبعث كخرير السيل المنحدر على سفح جبل بعيد، بينما فغرت زوجه فاها وشجب وجهها ونم مرآها عن هول ما كانت تسمع.. فلما خلا إليها وخلت إليه في مقصورتهما تلك الليلة، وراحت تعيد على مسمعيه الحديث وهي مبهورة تلهث.. حتى إذا كان الصباح التالي، بادرته مسز دافيدسون في مباهاة:

- ألم أقل لك؟.. أسمعت أبشع من هذا وأفظع؟.. ما أراك إلا قد عذرتني إذ لم أستطع أن أقص عليك ذلك بنفسي..

وتبدت عليها معالم الجد وهي ترى لحديثها أثراً يتغلغل في نفسه، واكتسب صوتها رنة من يفضي بأمر خطير واستطردت:

- هل تعجب بعد ذلك إذا قلت لك أننا ارتعنا إذ رأينا هذه الأمور حين هبطنا إلى تلك الجزر أول مرة؟.. ولعلك لا تصدقني إذا قلت لك أنه كان من المستحيل أن تعثر على فتاة طاهرة طيبة في أية قرية هناك.. وتشاورت مع مستر دافيدسون فرأينا أننا يجب أن نبادر بتحريم الرقص، قبل أي شيء.. فقد كان الأهالي مولعين بالرقص.

فقال الدكتور:

– ما كنت أكره الرقص في شبابي.

– لقد حدست ذلك حين سمعتك تسأل مسز ماكفيل أن تشاركك أحد أدواره في الليلة الماضية.. ومع أنني لا أرى ثمة حرجاً أو ضرراً إذا رقص الرجل مع زوجه إلا أنني شعرت بارتياح حين أبت، ففي مثل هذه الظروف، أرى أنه يحسن بنا أن نتحفظ وأن نبتعد عن الجميع..

– في أية ظروف تعنين؟

فرقمته بنظرة سريعة، ولكنها لم تجب، بل استطردت تتابع حديثها الأول:

– أما بين البيض فالأمر يختلف، وإن كنت أوافق مستر دافيدسون في استنكاره أن يرضى الرجل بأن يرى زوجه بين ذراعي رجل آخر، ومن ثم فإنني لم أرقص قط منذ تزوجت.. بيد أن الرقص الوطني هنا يختلف عن رقصنا، فهو لا ينافي الآداب فحسب، بل أنه يقود إلى الفساد.. وكم أحمد الله إذ استطعنا أن نقمع شره، وما أظنني مخطئة إذا قلت لك أن أحداً لم يجرؤ على الرقص في منطقتنا منذ ثماني سنوات..

* * *

كانت السفينة قد بلغت مدخل الميناء إذ ذاك، وأقبلت مسز ماكفيل فانضمت إليهما. وحادت السفينة عن طريقها لتتسلل في هدوء

وتؤدة إلى المرفأ الذي لاح كبيراً متسعاً يكفي لإيواء أسطول بأسره.. وقد حفت بجوانبه التلال الخضراء العالية.. وكان يقبع على مقربة من مدخل المرفأ، بيت الحاكم، معرضاً لنسمات البحر العليلة، مستكينا بين أحضان حديقة ناضرة، وقد رفرف فوقه العلم الأمريكي.. ومرت السفينة بعده ببيتين أو ثلاثة، وبساحة أعدت للعب كرة المضرب، ثم أقبلت على الرصفة ومباني مخازن المدينة. فأشارت مسز دافيدسون إلى سفينة بخارية على حوالي المائتي ياردة ذاكرة أنها المركب الذي سيقلهم إلى "آبيا".

وأقبل حشد صاخب، مرح، من الأهالي انبعث من كل أرجاء الجزيرة، يحدو الفضول بعضهم، وتحفز الباقين الرغبة في استبدال بعض ما يحمله المسافرون إلى سيدني من سلع بما لديهم من طرف ومن فواكه فكانوا يحملون سلال الأناناس والموز، والمنسوجات المتخذة من نبات "التابا"، والقلائد والأصداف وأسنان الأسماك، ونماذج صغيرة من قوارب الحرب الأهلية.. وراح الملاحون الأمريكيون يجوسون خلالهم وقد تبدوا في ملابس أنيقة، وتراءت وجوههم الحليقة مليحة، صافية، كما اجتذب مرآهم بعض الموظفين الحكوميين، فمضوا يستعرضون هذه الطرف وتلك الفواكه..

وأخذ ماكفيل وزوجه، ودافيدسون وزوجه، يرقبون هذا المنظر ريثما يتم نقل أمتعتهم إلى البر.. ولم تخلف عن عيني الطبيب تلك القرح الملتهبة المتورمة التي كان الأطفال يعانون أوجاعها، كما أومضت عيناه إذ وقعتا للمرة الأولى على بعض حالات مرض الفيل، حين رأى بعض الرجال

يسيرون وقد تضخمت أذرعهم، أو أخذوا يجرون خلفهم سيقانا انتفخت وترهلت وشاه شكلها.. وتأمل الدكتور ماكفيل الأهالي وهم منطلقون عراة الأجسام لا يكادون يسترون عوراتهم بغير قطعة صغيرة من النسيج، فقالت مسز دافيدسون:

– إنها حالة وقحة، ويرى مستر دافيدسون أنه يجب تحريمها قانوناً.. كيف تتوقع من أولئك الناس أن يتمسكوا بأهداب الفضيلة وهم لا يكادون يرتدون سوى قطعة من النسيج القطني الأحمر، لا تكاد تستر عوراتهم؟

فقال وهو يجفف عرقه:

– ولكنه لباس ملائم لهذا الجو القائظ.

وكانوا إذ ذاك قد بارحوا السفينة وبلغوا البر، فإذا الأرض تكاد تلتهب تحت أقدامهم رغم أن الوقت كان مبكراً.. وكان الجو قائظاً خانقاً وقد حجت التلال المحيطة بجزيرة "باجو– باجو" كل نسمة عليلة عنها.

فقالت مسز دافيدسون في صوتها المعدني الرفيع:

– لقد ألغينا هذا المئزر في الجزر التي نعمل بها، فلم يعد يرتديه سوى نفر قليل من الرجال.. أما النساء فقد أصبحن يكسون أجسادهن، كما تعود الرجال ارتداء السراويل والأقمصة.. وما تم ذلك إلا بعد أن قال مستر دافيدسون في إحدى النشرات التي أصدرها في الأيام الأولى من

هبوطنا هناك، أن أهالي الجزر لن يقبلوا في حظيرة المسيحية أو يصح تدينهم، حتى يكون لكل صبي يتجاوز العاشرة من العمر، سروال..

وتطلعت مسز دافيدسون بعينيها الحادتين إلى بعض السحب التي بدت في السماء، إذ أحست بقطرات من الماء تتساقط، ثم قالت:

– يحسن بنا أن نأوى إلى مكان يعصمنا من المطر..

واتجهوا مع الناس إلى بقعة من الأرض أقيمت عليها سقوف من الصاج، في الوقت الذي أخذ المطر يتهاطل ويزداد غزارة شيئاً فشيئاً حتى راح ينصب كالسيل الجارف.. وفيما كانوا هناك، لحق بهم مستر دافيدسون..

كان المبشر كثير التأديب والتحفظ في علاقته بماكفيل وزوجه خلال الرحلة، فلم تك له ما لزوجه من موهبة التودد ولين المعاشرة والمقدرة على الثرثرة، بل كان يقضي الكثير من وقته في القراءة والاطلاع.

كان صموتاً إلى حد الوجوم، حتى لتحس أنه لا يبدي التلطف في بعض الأحيان إلا كواجب تفرضه عليه مكانته الدينية.. وكان متحفظاً بطبعه، حتى ليبلغ به ذلك حد الاكتئاب.. كما كان فذا في مظهره إذ كان طويل القامة نحيفها، طويل الأطراف، غائر الوجنتين، تبرز عظام خديه بروزا ظاهراً جليا.. لا يدل وجهه على معنى من معاني الحيوية، حتى ليدهشك أن تلاحظ –رغم ذلك– أن له شفتين تنمان عن حساسية وعاطفة زاخرة.

وكانت عيناه غائرتين في محجريهما، واسعتي المقلتين، فياضتين بالأسى، كما كانت يداه كبيرتين، طويلتي الأصابع متناسقتيها، ينم مظهرهما عن القوة والشدة.. ولكن أكثر ما كان يلفت النظر إليه هو ذلك الشعور الذي يبعثه في نفسك عندما تقع عليه عيناك، فكأنما كان جسده أتونا يخفي في أعماقه لهبا دفينا مكبوتا..

كانت له شخصية قوية تبعث في النفس أثراً طاغياً، و.. شعوراً من الخوف المبهم الخفي، في الوقت عينه.. كان من أولئك الرجال الذين لا يسهل على المرء اكتساب ودهم واستمالتهم!

والواقع أن البرود والنفور اللذين كانا يطبعان مظهره الخارجي بطابعهما، لم يكونا سوى صدى للقسوة التي كان يرى أن واجبه يحتمها عليه في أخذه بمقاليد القوم الذين ولى أمر هدايتهم إلى الدين وإلى الطريق القويم.. فقد كانوا قوماً يتفشى بينهم الجهل، ويحملهم على التشبث بما فطروا عليه، والتمسك بما وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم، حتى ليعي أمر المبشرين أمر هدايتهم وإرشادهم وتهذيب أخلاقهم. ومن ثم كان يصطنع القسوة والجمود ليرهبهم ويردهم عن التمادي في غيهم.

أما فيما وراء هذا المظهر الخارجي، فقد كانت ثمة شعلة ملتهبة موقدة ذات ذكاء وأجيج.. شعلة من الإيمان القوي الوطيد، ومن التحمس لبث تعاليم الدين، وضم أكثر ما يمكن ضمه من الناس إلى حظيرة المسيحية.. وكان هذا التحمس، وذاك الإيمان المتوقد، هما سر ذلك الأثر

الذي يتركه في نفس من يلقاه، أو يتعرض لنظراته الحادة النفاذة إلى الأعماق، المتغلغلة إلى طيات القلوب!..

* * *

وكان يحمل إلى زوجه ورفيقها أنباء غير مستحبة، حين لحق بهم. فقد أزجى إليهم أن في نفس الجزيرة وباء خطيراً شديد الوطأة، انتشر بين الوطنيين، ثم انتقلت عدواه إلى أحد بحارة السفينة التي كان مقرراً أن يستقلوها ليقطعوا ما بقي من مسافة في رحلتهم. ومع أن المريض قد حمل إلى البر وحجز في المصح، إلا أن التعليمات البرقية صدرت من "آبيا" متضمنة أنه لن يسمح للسفينة بدخول المرفأة، إلا بعد أن تتحقق السلطات الصحية من أن العدوى لم تنتقل إلى فرد آخر من الملاحين..

وأردف المبشر قائلاً:

– ومن ثم فسنضطر إلى البقاء هنا عشرة أيام أخرى على الأقل.

فقال الدكتور ماكفيل:

– ولكنهم يتوقعون وصولي في "آبيا" في أسرع فرصة ممكنة.

– لا مفر.. وإذا ثبت أن العدوى لم تنتقل إلى فرد آخر، فسيسمح للباخرة بالإبحار بعد هذه الأيام العشرة حاملة البيض فقط.. أما الأهالي الوطنيون، فقد حرم عليهم الانتقال ثلاثة أشهر فتساءلت مسز ماكفيل:

وهل نجد هنا فندقاً نأوى إليه؟

فقال وهو يضحك ساخراً:

– لا..

– إذن فماذا ترانا فاعلين؟

– لقد تحدثت إلى الحاكم في هذا الصدد، فعلمت أن ثمة تاجراً في الجزيرة أعد بعض الحجرات المؤثثة للإيجار، ولذا أرى أن نقصد نزله بمجرد انقطاع الأمطار، ويتدبر الأمر هناك.. ومن الطبيعي أننا لن نجد الراحة المنشودة غير أننا يجب أن نقنع شاكرين إذا حصلنا على سرير للنوم، وعلى سقف يظلنا.

ولكنهم لم يروا بارقة أمل توحي بأن المطر وشيك الانقطاع، فما لبثوا أخيراً أن ارتدوا معاطف من النوع الواقي من المطر، ورفعوا مظلات فوق رؤوسهم، ثم يمموا شطرا المنزل، مخترقين البلدة التي تبينوا أنها ليست سوى مجموعة من المنازل المعدة لموظفي الحكومة ولمكاتبهم ومن متجر أو اثنين تقبع خلفها بضعة مساكن كالأكواخ أعدت للأهالي بين أشجار "جوز الهند".

وكان النزل الذي قصدوه على مسيرة خمس دقائق من رصفة الميناء.. وكان المبنى يتألف من طابقين، لكل منهما شرفات واسعة عريضة، وقد أعد سقفه من الصاج.. أما صاحبه فكان ثمرة زواج تم بين أوربي ووطنية من بنات الجزيرة فلما كبر تزوج بدوره من إحدى الوطنيات فأنجب منها بضعة أطفال سمر.

ومن ثم فقد كان أقرب إلى الأهالي الوطنيين في حياتهم وعاداتهم مع شيء من التهذيب أضفاه عليه ماله من الجنس الأبيض. وكان له في أسفل المنزل متجر يبيع فيه الأطعمة المحفوظة والقطنيات.

* * *

وكانت الغرفتان اللتان أراهما لهم شبه عاريتين من الأثاث. فلم يك في الحجرة التي جعلت من نصيب الطبيب وزوجه، سوى سرير قديم ذي كلة بالية لتحمي النائم من البعوض، ومقعد واهن كليل، وحوض للاغتسال..

وأجال الطبيب وزوجه أعينهما في أرجاء الحجرة في امتعاض ولكن الأمطار التي كانت تتدفق في الخارج جعلتهما يتقبلان الحجرة راضيين.

وما لبثت أن أقبلت مسز دافيدسون –بينما كانت مسز ماكفيل تفتح إحدى الحقائب– وقد بدت متوقدة النشاط، لم يثقل نفسها منظر الحجرتين، فبادرت زوجة الطبيب قائلة:

– لو استمعت لنصحي لأسرعت إلى إبرة وخيط ولشرعت تواً في رفو هذه الكلة ورتق فتوقها، وإلا أقض البعوض مضجعيكما وحرمكما النوم، فهذا موسم تكاثر البعوض ونشاطه.. ولسوف ترين –إذا دعيت إلى مأدبة في بيت الحاكم في "آبيا"– أن كل السيدات يتلقين عند حضورهن أكياساً يغبن فيها النصف السفلى من أجسادهن!

وددت لو كفت الأمطار قليلاً، ففي وسعي أن أفكر مرتاحة في تنظيم المكان، لو أن الشمس كانت مشرقة.

– لو أنك انتظرت حتى تعود الشمس إلى إشراقها، لطال بك الانتظار، فإن "باجو– باجو" من أغزر مناطق المحيط الهادي أمطاراً، طيلة السنة.

وأخذت تنقل بصرها بين ماكفيل وزوجه وقد وقفا في الحجرة كروحين ضالتين، فلم ترى خيراً من أن تتولى الأمر بنفسها، فهتفت:

آتيني بإبرة وخيط فارتق كلتكما بيدي، بينما تنصرفان إلى استخراج متاعكما من حقائبكما، فإن موعد الغداء في الساعة الواحدة.. بل يحسن بك يا دكتور ماكفيل أن تهبط إلى الميناء فتستوثق من أن بقية متاعكما قد نقل إلى مكان جاف، فإن الأهالي من الغباء بحيث لن يبالوا أن يتركوه تحت الأمطار طيلة الوقت.

فعاد الطبيب يضع معطفه الواقي من المطر على كتفيه ويغادر النزل، فإذا به يصادف لدى الباب الخارجي مستر هورن صاحب النزل، وقد اندمج في حديث مع الضابط المساعد على ظهر السفينة التي أقلت الجميع إلى الجزيرة، ومع فتاة من راكبات الدرجة الثانية، صادفها الدكتور ماكفيل مراراً خلال الرحلة. وكان الضابط قذر الملبس كئيب المنظر صغير الجسم، هز رأسه محييا حين رأى الطبيب وقال:

– من سوء الحظ أن يعوقكم الوباء عن متابعة الرحلة يا دكتور.. ولكنني أرى أنكم قد استقررتم هنا.

وخيل للطبيب أن الضابط يتعدى حدود المعرفة فيخاطبه في ألفة، كما لو كان صديقاً رفعت بينهما الكلفة فاستحل لنفسه أن يتداخل في شئون صديقه الخاصة، بيد أنه كان رزينا لا يثور بسهولة فأجاب قائلاً:

– أجل لقد استأجرنا غرفة هنا..

– لقد كانت مس تومسون مزمعة الإبحار معكم إلى آبيا، فرأيت أن أدلها على هذا النزل..

وأشار إلى المرأة التي كانت تقف إلى جواره، فتأملها الطبيب ليرى أنها في حوالي السابعة والعشرين، بدينة، جميلة إلى حد ما.. وكانت ترتدي ثوباً أبيض، وقبعة بيضاء عريضة الحواف، وقد برزت أصابع قدميها –المستترتين وراء جوربين من القطن الأبيض– من طرفي حذائيها.. وابتسمت للطبيب قائلة في صوت أجش:

– إن هذا الرجل يحاول أن يتقاضاني ريالاً ونصف ريال عن كل يوم أقضيه في حجرة صغيرة حقيرة..

وقال الضابط موجهاً حديثه لصاحب النزل:

– إنها صديقتي يا جو، وليس في إمكانها أن تدفع أكثر من ريال، فلا بد لك من أن تقبلها لقاء هذا الأجر..

فابتسم صاحب النزل، وكان رجلاً بديناً لين الجانب، وقال:

– إذا كان الأمر كذلك يا مستر سوان، فسنعمل كل ما في طوقنا إرضاء لك.. سأتحدث إلى مسز هورن في هذا الصدد، وثق أننا سنخفض الأجر إذا وجدنا مجالا للتخفيض..

فقالت مس تومسون:

– لا تعمد إلى هذه الحيل معي فلست بالتي تغرها هذه الأساليب إلى المساومة، بل يجب أن نفرغ من الموضوع الآن، ستتقاضى ريالاً واحداً لا يزيد سنتاً، في مقابل الحجرة.. فما قولك؟..

وابتسم الطبيب، إذ أعجب بالحزم الذي بدا منها في إبرام الصفقة. فقد كان من ذلك النفر من الناس، الذين يدفعون ما يطلب إليهم دون مساومة..

وتنهد صاحب النزل أخيراً وقال:

– سأقبل إكراماً لك ما مستر سوان.

فقالت مس تومسون:

هكذا يجب أن تفعل.. تعال أقدم لك قدحاً من الشراب، فقد أحضرت في هذه الحقيبة نوعاً من أجود أنواعه، سأذيقك إياه أنت الآخر يا مستر سوان لو حملتها إلى الحجرة.. وكذلك أدعوك يا دكتور..

فقال ماكفيل:

– ما أظنني مستطيعاً، إذ أنني خارج لأرى ما أصاب متاعنا في الميناء من جراء الأمطار.. فشكراً لك..

وانطلق تحت الأمطار المنهمرة كالسيول الدافقة.. ومر في طريقه باثنين أو ثلاثة من الأهالي لا يستر أجسادهم سوى المئزر الصغير الملتف حول خصر كل منهم، وقد رفعوا المظلات العريضة فوق رؤوسهم، وساروا في خطوات خفيفة رشيقة معتدلة.. وكانوا يبتسمون إذا رأوه ويحيونه بلغة لا يفهمها..

وعاد إلى النزل بعد موعد الغداء، فإذا المائدة قد مدت لهم في قاعة الجلوس بالنزل، فجلس إليها مع زوجه ومسز دافيدسون..

أما المبشر فلم يكن موجوداً، وقالت زوجه أنه ذهب ليقابل الحاكم، ومن المحتمل أن يكون هذا قد احتجزه للغداء...

وأقبل صاحب النزل يطمئن إلى ارتياحهم للطعام فقال له الدكتور ماكفيل:

– إذن فقد غدت لديك نزيلة أخرى سوانا يا مستر هورن؟!

– لقد استأجرت الغرفة، ولكنها تكفلت بأمر طعامها..

وألقى على السيدتين نظرة ذات معنى وقال:

– لقد أنزلتها في الطابق السفلي حتى تختلط بكم، ومن ثم فلن تزعجكم.

فتساءلت مسز ماكفيل:

– أهي ممن كانوا على ظهر الباخرة؟

فأجاب هورن:

–أجل، كانت من ركاب الدرجة الثانية، وهي تقصد آبيا، حيث ينتظرها منصب في أحد المتاجر كصرافة.

وقال الطبيب إذ انصرف صاحب النزل:

– ما أظنها تحس أية متعة إذ تتناول طعامها في غرفتها..

فقالت مسز دافيدسون:

– لن تشقى بهذا في الواقع، إذا كانت حقاً من ركاب الدرجة الثانية.. أنني لا أعرف أي نوع من النساء هي على كل حال..

– لقد صادفتها عند الباب حين أحضرها ضابط السفينة، وهي تدعى مس تومسون.

أتراها تلك المرأة التي كانت تراقص الضابط في الليلة الماضية؟

فقالت مسز ماكفيل:

– لابد أنها بعينها.. لقد عجبت من أمرها حين رأيتها، إذ بدت لي غير محتشمة..

- ما أخالها بالمرأة الطيبة.

وتطرقوا في الحديث إلى موضوعات أخرى حتى فرغوا من الطعام، فنهضوا لينعموا بالراحة والقيلولة..

فلما استيقظوا، كانت السماء ما تزال معتمة ملبدة بالغيوم، وإن كانت الأمطار قد كفت عن الهطول، فخرجوا يتنزهون ويسيرون في الطريق التي مدها الأمريكيون على طول الخليج..ووجدوا دافيدسون قد عاد إلى النزل حين انتهوا إليه من نزهتهم، فقال لهم:

- قد نضطر إلى البقاء هنا أسبوعين. ولقد جادلت الحاكم في ذلك ولكنه يقول أن ليس في يده من الأمر شيء..

فقالت زوجه لرفيقها وهي ترمقه في قلق:

- إن مستر دافيدسون يتوق إلى العودة لعمله ولذا فهو لا يرحب بالظروف التي تؤخر وصولنا إلى الجزر التي نعمل فيها..

فقال المبشر وهو يذرع الشرفة:

- لقد غبنا عاماً كانت مقاليد الإرسالية ملقاة خلاله إلى المبشرين الوطنيين، ولذا فإنني أخشى أن يكونوا قد تساهلوا أكثر مما ينبغي..لست أحاول أن أطعن في صلاحهم، فهم أتقياء يخشون الله، ويزري إيمانهم بتدين الكثيرين ممن يدعون أنهم مسيحيون في بلادنا.. ولكنني غير مطمئن إلى أنهم يستطيعون المثابرة على الحزم إزاء الأهالي.. فإن هؤلاء قوم أعمى الجهل

بصائرهم وأضلهم سواء السبيل وحبب إليهم العادات المقيتة، والمفاسد التي شبوا عليها، والرذائل التي طبعوا عليها بالفطرة..

لقد جهدت وتحملت أقسى ألوان النصب حتى زحزحتهم عن هذه المساوئ المستهجنة القبيحة، ولكنهم ما كانوا ليحجموا عن الارتداد إليها والعودة إلى الانغماس في حمأتها، لولا حزمي وتشددي وأخذي كل مخالف بالشدة الرادعة..

إنهم الآن كالفرس التي كبح جماحها غضباً وقوة، فلو أنهم رأوا تساهلاً، أو اشتموا رائحة التسامح من القائمين على أمورهم في غيابي، لأفلتوا راكضين إلى أسوأ مما وجدتهم عليه وانتشلتهم من وهدته..

وكان مستر دافيدسون يقف معتدلاً ساكناً، بقامته الطويلة النحيلة، وقد تألقت عيناه خلال الشحوب الذي يكسو وجهه..كان إخلاصه يتجلى في حركاته وحرارة حديثه.

وعاد يقول:

– أخشى أن أجد عملي قد قلب رأساً على عقب، ومن ثم فلن أحجم عن أن أعمل في حزم بات، فإن الشجرة إذا تطرق إليها الفساد، وجب قطعها وإلقاؤها في النار.

الفصل الثاني

في ذلك المساء -وبعد أن تناول الجميع الشاي- جلست السيدتان تطرزان في قاعة الجلوس، وعكف الدكتور ماكفيل على تدخين غليونه، بينما مضى المبشر يحدثهم عن جهاده في الجزر:

- لم يكن لدى أحد منهم -حين هبطنا الجزيرة للمرة الأولى- أي شعور يوحي إليه بما يجعله يحس بالخطيئة ويعرف معناها.. كانوا يخرقون تعاليم الدين دون أن يدركوا أنهم يذنبون. ولعل هذه كانت أشق مراحل عملي، إذ كان علي أن أهدي الأهالي إلى ما يعرفهم الخطيئة كي يجتنبوها..

كان الدكتور ماكفيل وزوجه قد عرفا من سياق ما سلف من أحاديث، أن دافيدسون قضى خمسة أعوام في التبشير في جزر سليمان، قبل أن يلتقي بزوجه التي كانت في إحدى الإرساليات التبشيرية في الصين..

وكان لقاؤهما في بوسطن، حيث كان كل منهما يقضي فترة من "أجازته" هناك، منتهزاً هذه الفرصة لحضور مؤتمر التبشير كان سينعقد في تلك الأثناء، فما لبثا أن تآلفا واتفقا على الزواج وإن هو إلا أن أتما مراسيمه وعقدا قرانهما، حتى عينا في تلك الجزر التي كانا اليوم يقصدانها بعد عطلة قضياها في الخارج، ليعاودا جهودهما في تنوير عقول أهلها وإرشادهم.

ولقد كانت كل هذه الأحاديث كفيلة بأن تظهر الطبيب وزوجه على ما كان بين ضلوع المبشر من روح جريئة لا تعرف الخور أو التردد فكان إلى جانب عمله الديني يعالج الأهالي ويسعف مرضاهم، ولايني عن أن يستقل قارباً صغيراً، ليغيث ملهوفاً، في غمرة السيول المتدفقة، رغم ما عرف عن خطورة عواصف المحيط الهادي الممطرة.. وكثيراً ما يئست زوجه من عودته في الليالي المدلهمة الثائرة الطبيعة، فاحتسبته من الضائعين.

وقالت لصاحبيها:

– كنت أحيانا أتوسل إليه أن يبقى، أو أن ينتظر –على الأقل– حتى يهدأ الجو، ولكنه لم يستمع إلي قط.. فهو عنيد، إذا ما صمم مرة على أمر، فمن المحال أن يزحزحه عنه شيء..

أنكما حديثا عهد بهذه البقاع، فلم تعرفا بعد غزارة سيولها، وما تكون عليه من قوة جامحة إذا تدفقت فهي تكتسح كل ما أمامها غير مبقية.. وتصورا شعوري حين يصر على الخروج لإسعاف مريض، أو ليقف إلى جوار محتضر يجود بأنفاسه الأخيرة، كي يهدئ روحه ويسبغ عليها سلاماً وهي تغادر الجسد الفاني والعالم الزائل لتنتقل إلى السماء..

تصورا شعوري حين يصر على الخروج في قارب صغير وسط الأنواء الثائرة والسيول الدافقة!. وإني لمثل هذا القارب أن يقاوم قوى الطبيعة الثائرة، وهو الذي يعد بينها كاللعبة الصغيرة في يد طفل شرس شرير!

ونظرت إلى زوجها نظرة ذات معان، ثم تنهدت قائلة:

– عبثاً حاولت أن أبصره بالأخطار التي يزج بنفسه في غمرتها، أو أن أثنيه أو حتى أحتجزه ريثما تهدأ الطبيعة الجامحة.... أجل، إنه عنيد صلب الرأي، لا يشفق على نفسه أو يخشى عليها..

فصاح دافيدسون:

– كيف أدعو الناس أن يؤمنوا بالله وأن يثقوا فيه إذا كنت أخشى أن أفعل ذلك بنفسي؟ ولكنني لا أخشى، ولا أخاف عاقبة الثقة في الله.. وهم يعرفون أنني لا أتردد في أن أخف إليهم إذا أرسلوا في طلبي في إحدى الضائقات ما دام الذهاب إليهم في طوق الإنسان ومكنة الآدمي.. وهل تخالين أن اله يتخلى عني إذا كنت منطلقاً في خدمته؟.. هو الذي يسير الرياح ويرسل الأمطار بأمره..

وكان الدكتور ماكفيل بطبعه جباناً، فما استطاعت القنابل المتفجرة في الخنادق أن تطرد الخوف من قلبه.. بل إن العرق كان يتصبب من جبينه فيبسط على عدستي نظارته غشاوة وهو يحاول أن يتمالك جأشه ويهدئ روعه، ويخفف من ارتعاش يده، حين كان يوفد لإسعاف الجرحى في خطوط القتال الأمامية.. لذلك، لم يتمالك أن تطلع إلى المبشر، وقد سرت في جسده رجفة، وهتف:

– وددت لو كان لي أن أقول أنني أبداً لم استشعر الخوف.

فأجابه المبشر:

– بل وددت لو وسعك أن تقول أنك تؤمن بالله.

وعاد المبشر يتابع حديثه عن أيامه الأولى:

– وقد كنت أتبادل النظرات أنا ومسز دافيدسون أحياناً، ثم لا تلبث أن تنهمر الدموع على وجناتنا مدرارة.. فلقد كنا نجهد ليل نهار دون أن تلوح لنا بارقة أمل.. ولست أدري ما الذي كنت فاعلاً إذ ذاك لولاها..

كانت تشجعني وتبث في نفسي الأمل كلما أوشكت أن أيأس.. لم يكن معنا من يساعدنا ويشد أزرنا.. إذ كنا نبعد آلاف الأميال عن قومنا، تكتنفنا ظلمات الجهل والخطيئة من كل جانب.. فلما كنت استسلم للوهن والإعياء، كانت تطرح عملها جانباً وتنصرف إلى تشجيعي ولا تفتأ تذكرني بالعظات الدينية حتى يعاود الهدوء نفسي كما يهبط النوم على أجفان الوليد، فإذا اطمأنت لذلك وقالت: "لسوف ننقذ نفوسهم على الرغم منهم" فلا البث أن أشعر بالقوة في سبيل الله، فأجيبها: "أجل، سأنقذهم بعون الله يجب أن أنقذهم.

واقترب من المائدة فوقف أمامها كما لو كانت يقف أمام محراب، وقال:

– كانوا من الجهل بحيث لا يمكن إرشادهم إلى رذائلهم.. كان لابد من أن نبين لهم الخطايا بين الأعمال التي كانوا يأتونها بالفطرة..كان لابد من أن نريهم الإثم ممثلاً لا في الزنا والكذب والسرقة فحسب، بل وفي

كشف أجسادهم وتركها عارية، وفي الرقص، وفي التخلف عن التردد على الكنيسة.. أعلنت لهم أن كشف الفتاة عن صدرها ذنب، وأن سير الرجل دون سروال خطيئة.. وقررت لذلك غرامات مالية، فمن الجلي أن خير وسيلة لإرشاد الناس إلى الخطايا هي في عقابهم إذا أتوها وارتكبوها. ومن ثم كان لابد لكل ذنب من غرامة يؤدونها مالاً أو عملاً، وبذا تسنى لي أن أحملهم على الفهم والإدراك.

فتساءلت زوجة الطبيب:

– أو لم يرفضوا دفع الغرامات؟

فأجابت زوجة المبشر في اعتداد:

– كان من الجرأة أن يستطيع رجل أن يعارض مستر دافيدسون.

وتأمل الطبيب المبشر في قلق وقد أذهلته تلك الأعمال، بينما قال:

–كان ثمة تصرف استطيع أن ألجأ إليه إذا اضطرني الأمر.. ذلك هو أن أطرد المذنب المعرض عن الدفع المترفع عن تحمل العقاب، من حظيرة الكنيسة..

– أو كانوا يأبهون لهذا العقاب؟

فابتسم وقال:

– إنهم ما كانوا يستطيعون –إذا طردوا من الكنيسة– بيعاً ولا شراء، فلا يلبثون أن يغدوا في جوع ومتربة.. لقد كان في الجزر تاجر دانيمركي

يدعى "فريد أهلسن"، عاش فيها أعواماً طويلة، حتى أثرى واستطاب الغنى.

فلما هبطنا الجزر، لم يسر لمقدمنا، فلقد كان يصرف الأمور وفق هواه.. كان يدفع ما يشاء للأهالي مقابل ما يبيعونه إياه من سلعهم. وكان يؤدي هذا الدفع سلعاً وخمراً.. وكان متزوجاً بإحدى الوطنيات بيد أنه لم يك مخلصاً لها وكان سكيراً كبيراً.. فوهبته فرصة لإصلاح عيوبه ولكنه أبى واستكبر وسخر مني.. فما انقضى عامان حتى كان في أعماق هاوية الخراب فخسر كل ما ادخر في ربع قرن.. لقد حطمته حتى اضطر أخيراً أن يأوى إلي كالمتسول ليضرع لي كي أهبه أجر العودة إلى سيدني.

وتحول دافيدسون يتأمل الظلام السابغ على الجزيرة خارج النزل.. وكانت الأمطار قد عادت إلى الانهمار..

وراح الطبيب يتأمل فيما سمع.. كان يعرف أن معظم أهل الجزر يرتزقون من بيع الطرف التي يحصلون عليها من جزرهم للبيض من الزوار أو المارين بتلك الجزر في السفن التي تمخر المحيط أو المقيمين بينهم من الموظفين.. فكانوا يصيدون حيات "الكوبرا" من الأدغال فينتزعون أنيابها السامة ويعرضونها على أولئك البيض الذي كانوا يرون فيها شيئاً نادراً يحلو لهم أن يقتنوه.. وكانوا يصنعون من الخرز والمرجان عقوداً جميلة لا قبل للبيض بها في بلادهم..

وكانوا يجنون ثمار الغابات من أناناس وموز وغيرهما من أنواع الفواكه التي تبلغ أضعاف مثيلاتها من منتجات البلاد الأخرى حجماً والتي تكتنز بالعصارات الشهية وتبدو ضخمة ممتلئة شهية يسيل لها لعاب أولئك البيض.. فلو أن الأهالي حرموا من هذا المورد؟!

كان العقاب ولا شك رادعاً كفيلا بأن يرد كل راكب رأسه عن غيه!

وفجأة انبعثت من الطابق السفلي أنغام موسيقية يرسلها حاك – "جراموفون"– في صوت مرتفع!

فنظر المبشر لزوجه في تساؤل فسوت مسزدافيدسون من وضع نظارتها على أنفها، وقالت:

– لقد استأجرت إحدى راكبات الدرجة الثانية في السفينة، حجرة في المنزل وأظن هذه الأنغام تنبعث من حجرتها.

وأنصتوا في صمت، فإذا بالأنغام التي يسمعونها من موسيقى الرقص، وإذا بها لا تلبث أن تصمت فتعقبها تلك الفرقعة التي تصحب انتزاع سدادات الزجاجات، تصحبها أصوات حديث..

فقال الدكتور ماكفيل:

– لعلها تقيم مأدبة وداع لأصدقائها الذين تعرفت إليهم على سطح السفينة، فإن هذه ستقلع في الساعة الثانية عشرة على ما أظن..

ولكن دافيدسون لم يعر كلامه التفاتا، بل نظر إلى زوجه وسألها:

– أمستعدة أنت؟

فقالت وهي تنهض عن مقعدها فتستوي على قدميها:

– أجل.. هيا بنا!

وقال الطبيب إذ رآها يتأهبان للانصراف إلى حجرتهما:

– إن الوقت ما يزال مبكراً، ولما تحن بعد ساعة النوم.. ألا تريان ذلك؟

فقالت مسز دافيدسون:

– أمامنا فصل طويل نقرؤه الليلة..

وكأنما رأت الطبيب لا يفهم ما تقصد فقالت:

– لقد اعتدنا –حيثما كنا– أن نقرأ كل ليلة فصلاً من الكتاب المقدس قبل أن نأوى إلى الفراش، وأن ندرسه ونستذكره ونتناقش معاً فيما تحتمله عباراته من تفسير وتأويل، ونستوعب كل ذلك في دقة وعناية.. هلا جربت ذلك مرة؟.. إنها رياضة روحية مفيدة، وتدريب للذهن يساعده على حدة التفكير، وعلى أن ينفض عنه الخمول والجمود اللذين يحملانه على تقبل كل ما يقرأ أو يسمع أو يرى كقضية مسلمة لا داعي لأن يجهد نفسه في تدبر ما تتضمنه من معان، أو ما قد تؤدي إليه من تفاسير كامنة لا ينبئ عنها المظهر البادي..

وتبادل الفريقان تحية المساء، ثم تقدم المبشر زوجه في خطوات متئدة نحو حجرتهما، فغابا فيها، مغلقين بابها خلفهما..

* * *

وبقى الدكتور ماكفيل وزوجته دقيقتين مخلدين إلى الصمت بعد انصراف زميليهما، ثم لم يلبث الطبيب أن نهض ليحضر ورق اللعب من متاعهما، فحدقت فيه مسز ماكفيل في قلق، إذ كانت الأحاديث التي تبادلتها مع دافيدسون وزوجه قد ولدت في نفسها شيئاً من عدم الارتياح، حتى لقد خشيت أن يخرج أحد الزوجين من حجرتهما فيراها وزوجها يلعبان الورق.. بيد أنها لم تشأ أن تعارض زوجها، الذي ما لبث أن عاد يحمل الورق، وراح يرتبه وهي ترقبه كما لو كانت مقدمة على ذنب بغيض.. وعادت الموسيقى تنبعث من الطابق السفلي.

الفصل الثالث

في صباح اليوم التالي كان الطقس في "باجو– باجو" جميلا صافياً، فكره الطبيب وزوجه أن يقضيا أسبوعين في كسل وخمول، ومن ثم هبطا إلى مخازن الميناء، فأخرجا من حقائبهما الثقيلة بعض الكتب كي يستعينا بها على قضاء الوقت ودفع الملالة والسأم.. ثم يمم الطبيب إلى المصح البحري فقابل الجراح المشرف عليه، وطوف معه بأسرة المرضى.. كذلك قصد الزوجان إلى دار الحاكم فتركا بطاقتيهما.. وفيما هما في هذه الجولات صادفا "مس تومسون" في الطريق، فرفع الطبيب قبعته يحييها، فصاحت ترد تحيته بصوت عال مرح.. وكانت في رداء أبيض وقبعة بيضاء وحذاءين أبيضين لامعين، عالي الكعبين..

فقالت مسز ماكفيل لزوجها:

– ما أظنها في ملابس ملائمة، بل إنها تبدو لي متهتكة..

ولكن زوجها تغافل عن كلماتها، فلم يجبها بشيء، بل واصل السير إلى جوارها صامتاً. فلما عادا إلى المنزل بعد جولاتهما، رأياها في الشرفة تلعب مع أحد أبناء صاحب النزل السمر اللون..

فهمس الطبيب لزوجه:

– تحدثي إليها، فما أراها إلا وحيدة هنا ولا ينبغي أن نتجاهلها.

فقالت لها مسز ماكفيل في تلعثم:

– أظننا زملاء في هذا النزل؟

– إنه نزل لعين.. أو ليس من المزعج أن يقيم المرء في حجرة ضيقة كهذه، وأن يغبط في الوقت نفسه على أنه حظى بها!.. لست أدري لم لا ينشئون فندقا هنا ؟!

ودار حديث قصير، كان صوت مس تومسون ينبعث خلاله عالياً، أجش، في غير مبالاة. بينما كانت زوجة الطبيب تتحدث في صوت خافت وفي تلعثم وارتباك ظاهرين، شأن من أقحمت في أمر لا تميل إلى أذانه..

وما لبثت مسز ماكفيل أن استأذنت في الصعود إلى حجرتها..

فلما جلس الزوجان في ذلك المساء مع مستر دافيدسون وزوجه، إلى مائدة الشاي، قال المبشر:

– لقد رأيت رجلين من الملاحين يجلسان في حجرة المرأة التي تنزل في الطابق الأرضي، فعجبت، كيف تسنى لها أن تتعرف إليهما؟

ولكن الطبيب وزوجه عزفا عن هذا الحديث فودا لو يتحولان عنه. وكانا يحسان ضجراً من قضاء يومهما في كسل، فراح الطبيب يشكو وطأة الملل والسأم اللذين استشعرهما وزوجه في ذاك اليوم، وعقب قائلاً:

– ولست أدري، إذا كان هذا نوع شعورنا في اليوم الأول، ما سيكون وقد كتب علينا أن نقضي أربعة عشر يوماً هنا.. ترى كيف تقضي هذه المدة الطويلة المملة؟

فأجابه المبشر:

– إن خير ما تفعلانه للتغلب على السأم هو أن تعمدا إلى تقسيم يومكما وتخصيص كل قسم لنوع من أنواع الجهود التي تفيدان منها في نفس الوقت الذي تشغلكما فيه ونستأثر بتفكيركما، فلا تدعكما تستشعران تباطؤ الزمن في مروره، أو طول الأيام التي تقضيانها هنا.. هذه في رأيي أحسن سياسة لدفع الضجر..

وصمت لحظة ثم استطرد قائلاً:

– فأنا مثلاً سأخصص عدداً من الساعات للدراسة، وعدداً آخر للعبادة.. وبضع ساعات أخرى للنزهة سواء كان الجو معتدلاً أو مطيراً، فلا ينبغي أن يحفل المرء بالأمطار في مثل هذه البقاع، وفي مثل هذا الموسم الممطر..

فتطلع إليه الطبيب في تغاب.. وفي نفس اللحظة، انبعثت أنغام الحاكي من الطابق السفلي، فأجعل دافيدسون في انفعال.. وارتفعت خلال الأنغام أصوات رجال ينشدون أغنية معروفة، تصحبهم مس تومسون بصوتها الأجش المرتفع.. وتلت ذلك صيحات وضحكات.. وحاول الأربعة الأشخاص الذين كانوا ينزلون في الطابق العلوي أن يتبادلوا الحديث، ولكنهم كانوا ينصتون على الرغم منهم إلى رنين الكؤوس وأصوات زحزحة المقاعد عن أماكنها دلالة على مقدم أناس آخرين، وكأنما كانت مس تومسون قد أعدت مأدبة في حجرتها..

وقالت مسز ماكفيل بغتة.. قاطعة حبل حديث طبي كان قد اتصل بين المبشر وزوجها:

- إني لأعجب.. كيف يتسنى لها أن تدعوا الجميع إلى حجرتها الصغيرة؟

ونمت كلماتها عما كان يدور في ذهنها.. وكشفت أسارير المبشر عن أنه كان يفكر في نفس الأمر، رغم إقباله على الحديث العلمي.. وفجأة، قفز عن مقعدة بينما كان الطبيب منطلقاً في سرد بعض تجاريبه في جبهة "الفلاندرز".

فهتفت مسز دافيدسون؟

-ماذا جرى يا الفريد..؟

فصاح:

- لعمري، كيف لم يخطر لي ذلك من قبل؟!.. إنها من بنات "أويلي".

- ما أظنك جاد في هذا القول.

- لقد استقلت الباخرة في هونولولو، فالأمر واضح وقد جاءت تمارس مهنتها هنا.

وتبدت لهجة الاشمئزاز وهو ينطق آخر عباراته، فسألته مسز ماكفيل:

- وما هو (أويلي) هذا؟

فنظر إليها باكتئاب، وارتجف صوته وهو يجيب:

- إنه حي البغاء في هونولولو... الحي الذي يعد وصمة في جبين مدينتنا.

الفصل الرابع

كان حي "أويلي" يقع عند حافة المدينة. فإذا ما قصدته من الميناء. كان عليك أن تسلك بعض الطرق الفرعية التي يسيطر عليها الظلام الدامس إذا ما حل المساء، ثم تعبر جسراً ضعيفاً مترنحاً، يفضي بك إلى طريق مقفرة غير معبدة، انتثرت في أرضها الحفر والأحجار في غير انتظام..

وتسلمك هذه الطريق المظلمة إلى الأضواء فجأة، ودون أن تتوقع أنها انتهت.. فترى الطريق المهملة قد تحولت إلى أخرى معبدة، يقوم على جانبيها أفريزان وأماكن خاصة لإيواء السيارات التي يتركها أصحابها ريثما يزرون الحي.. وترى الحانات منبثة إلى اليمين واليسار، تسطع فيها الأنوار ويشع منها المرح، وتنبعث من داخلها أنغام المعازف.. كما ترى محال الحلاقة وبيع الطباق، وما إلى ذلك. وتكاد تحس لأول وهلة أن الجو يعبق برائحة اللهو العبث.

ولك بعد ذلك أن تعرج على أي الطرق الفرعية الممتدة ذات الشمال أو اليمين إذ أن هذه الطريق الواسعة تقسم حي "أويلي" قسمين فهي قلبه في الواقع.

وأيان عرجت منها، تجد نفسك في وسط الحي، وإذا بك محوط بصفوف من البيوت الصغيرة المنفصلة بعضها عن بعض، وقد بدت أنيقة

نظيفة، تتخللها ممرات سهلة معبدة.. فكأنك في أحد الأحياء الراقية في إحدى المدن الكبرى.

ولقد تبعث فيه رؤية هذه الدقة في النظام المتبع في تصميم ذلك الحي، والتناسق البادي في وضع مبانيه، ومد الممرات التي تفضي إليها..

قد تبعث فيك هذه الظاهرة شيئاً من الخيبة والقنوط من أن تحظى بساعة من ساعات اللهو، فما اعتاد الناس أن يبحثوا عن الحب في عالم يسوده النظام الهندسي الذي يوحي بالروح المادية التي تناقض الحب واللهو. ولكنك لو نفذت إلى ما خلف جدران تلك البيوت الصغيرة "الفيلات" لتبينت أنك مخطئ في شعورك هذا، وأن بين جنبات هذه البيوت، كل ما يمكن أن تطمع فيه من لهو، وكل ما يمكن أن تصبوا إلى ارتشافه من ملذات.

أما الممرات التي تفصل بين البيوت، فتضاء بمصابيح صغيرة خافتة، ولولا الأضواء المنبعثة من النوافذ، لكانت معتمة يسودها الظلام الدامس.

ويجوس الزائرون –وكلهم من الرجال طبعا– خلال تلك البيوت الصغيرة يتأملون ساكناتها –من بنات الهوى وبائعات الحب– وقد جلسن إلى جوار النوافذ، أو في الشرفات، يتشاغلن بالقراءة أو بالتطريز، أو بأي شيء يمكنهن من التظاهر بعدم الاهتمام بالمارة. ومن التغافل عن الأعين النهمة المتطلعة إليهن.

ويضم هذا الحي نسوة من شتى الجنسيات والألوان –تماماً كما هو

حال رواده وزائريه الذين تجد بينهم الأمريكيين من ملاحي السفن الراسية في الميناء، أو من الجنود– السود أو البيض الذين تتألف منهم الحامية المعسكرة في الجزيرة كما تجد بينهم اليابانيين، الذين يسيرون في جماعات لا تضم أصغرها أقل من شخصين وأبناء جزر هاوايي والصينيين في أرديتهم الطويلة الفضفاضة والقادمين من جزر الفلبين بقبعاتهم العريضة المصنوعة من الخوص والسعف.

ولعل أروع ظاهرة تطالعك في الحي، أن كل المنطقة التي تقوم فيها بيوت النسوة.. تقبع بين طيات صمت شامل.. فكما تجلس النسوة في النوافذ والشرفات ساكنات.. يسير الرجال في طوافهن صامتين ساكتين... ولا عجب... فالرغبة تبعث في النفوس الميل إلى الصمت!

* * *

وعاد دافيدسون يقول في تحمس:

– إن حي أويلي هو الفضيحة الصارخة في كل المحيط الهادي. لقد سعى المبشرون لتأليب الخواطر ضده أعواماً طويلة، ثم تولت الصحافة عنها هذه المهنة، ولكن البوليس أبى أن يحرك ساكناً أنكم تعرفون حجتهم ولا ريب.. فهم يقولون أن المنكر لا مناص من وجوده، ولذا فخير ما يعمل هو حصره ومراقبته.

ولكن الواقع أنهم تقاضوا أجورهم من صاحبات بيوت الفساد، ومن البغايا أنفسهن فحشيت أفواههم بالمال ولم تعد لهم قابلية للكلام..

ولكنهم اضطروا أخيراً إلى التحرك مرغمين حين اشتدت حملة المبشرين.

فقال الدكتور ماكفيل:

– لقد قرأت عن ذلك في الصحف التي حملت إلى المركب في هونولولو.

– لقد أقفل الحي على منكره وعاره في نفس يوم وصولنا واقتيد كل أهله إلى المحاكمة، وإني لأعجب كيف لم أفطن لأول وهلة إلى حقيقة هذا المرأة!

فقالت مسز ماكفيل:

– لقد تذكرت – على ضوء حديثك– أن هذه المرأة صعدت إلى السفينة قبل الإبحار ببضع دقائق..

فصاح دافيدسون في سخط:

– وكيف تجرؤ على المجيء هنا؟.. لا، لن أسمح بذلك.

واتجه نحو الباب في خطى واسعة فسأله ماكفيل:

– وماذا تراك فاعلا؟

– وما الذي تنتظر أن أفعله؟.. سأوقف كل هذا.. لن أدع هذا النزل يتحول إلى... إلى..

وحاول أن يفكر في كلمة لا تؤذي أسماع السيدتين.. واحتقنت عيناه

بينما ازداد وجهه شحوباً، في عنفوان الغضب، فقال الطبيب مشفقا عليه:

– يبدو أن هناك ثلاثة أو أربعة رجال... أفلا ترى أن من التسرع أن تذهب إليها الآن؟

فرماه المبشر بنظرة ازدراء، وانطلق دون أن يرد بكلمة، فبينما قالت مسز دافيدسون:

– إنك تجهل مستر دافيدسون، فلا تظن أن الخوف من أي خطر يتهدد شخصه، يقعد به عن أداء واجبه..

وجلست –عاقدة يديها في انفعال– وقد تضرجت وجنتاها، تنصت إلى ما قد يحدث في الطابق السفلي.. وأنصت معها الآخران، فسمعوا وقع أقدام المبشر على درجات السلم الخشبية، ثم صوت باب يفتح..

وانقطع الغناء فجأة، ولكن الحاكي ظل يرسل أنغامه الخليعة.ثم سمعوا صوت دافيدسون، وقرقعة شيء يلقى على الأرض، خرست بعده الأنغام، فأدركوا أن دافيدسون قد ألقى الحاكي أرضا..

وعادوا يسمعون صوت دافيدسون مرة أخرى ينطلق في تهدج وقوة، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتبينوا كلماته، ثم تبادر إلى أسماعهم صوت مس تومسون الحاد، وأعقبه صخب نم عن عدة أناس يصيحون في وقت واحد بأعلى أصواتهم..

وشهقت مسز دافيدسون وشدت يديها في عنف فأخذ الطبيب ينقل بصره بينها وبين زوجه في قلق..

لم يك راغباً في أن يهبط، ولكنه كان في حيرة لا يدري ماذا ترتقبان منه أن يفعل.. ثم سمعوا صوت ارتطام جسم، كأنما ألقى بدافيدسون خارج الحجرة، واصطفق الباب خلفه في عنف...

وساد الصمت بضع لحظات، ثم سمعوا دافيدسون يصعد السلم عائداً، فيمم شطر حجرته مباشرة في صمت ووجوم دون أن يلتفت إلى الآخرين. فأسرعت زوجه تنهض لاحقة به، يتبعها صوت مسز ماكفيل وهي تقول:

– إذا وجدت أنك بحاجة إلى معونتي فناديني.

فقال الطبيب بعد خروجها:

– لماذا لا يقصر عنايته على شئونه الخاصة؟

وساد الصمت بين الزوجين دقيقة أو اثنتين، ثم أجفلا فجأة، إذ عادت أنغام الحاكي تنبعث عالية متحدية تصحبها أصوات أجشة منكرة تردد أغنية مبتذلة..

وتبدت مسز دافيدسون شاحبة منهوكة القوى في الصباح التالي، وكأنما ازداد عمرها في الليلة الماضية أعواماً، واكتسبت مزيداً من الرزانة والجمود..

وأولت هذا التغير الذي طرأ على مظهرها بصداع يؤلمها، وبأن المبشر لم ينم ليلته، بل قضاها في انفعال رهيب، حتى إذا كانت الساعة الخامسة من الصباح، غادر فراشه، وفيما هو يخرج من النزل، ألقى على ملابسه كوب من الجعة فلوثتها وترك رشاشها بقعا عليها..

وأومضت عينا مسز دافيدسون بلهب مخيف وهي تقول:

– ستندم أمر الندم كلما ذكرت اليوم الذي أهانت فيه مستر دافيدسون.. أن له قلباً طيباً، حتى أن أحداً لم تلم به ضائقة وقصده إلا انصرف من لدنه مرتاحاً مطمئناً. بيد أنه قط لا يرحم مذنباً، وإذا أثير غضبه من أجل عمل من أعمال التقوى، غدا مخلوقاً فظيعا.

فسألتها مس ماكفيل:

– وما الذي ترينه فاعلا؟

– لست أدري، ولكنني لا أتمنى أن أكون في موقف هذه المرأة منه، مهما أوتيت... فلو أنه جرد قواه ونفوذه ضدها، وصمم على أن يثير الحملة عليها، لا حال إقامتها هنا جحيما لا يطاق...

فارتجفت مسز ماكفيل إذ أحست في لهج صاحبتها ما أخافها..

وخرجتا معا في ذلك الصباح.. وفيما كانتا تهبطان درجات السلم، مرتا بباب مس تومسون، فإذا هو مفتوح.. ولمحتاها تطهي شيئاً وهي في ملابس النوم المتهدلة على جسدها، فلما رأتهما صاحت:

– صباح الخير.. هل مستر دافيدسون أحسن حالاً هذا الصباح؟

غير أنهما لم تجيباها بل انطلقتا في طريقهما شامختين بأنفيهما متجاهلتين وجودها. ومع ذلك فقد تضرج وجهاهما حين لاحقتهما بضحكات خليعة هازئة، فتحولت إليها مسز دافيدسون وصاحت محنقة:

– إياك والتحدث إلي.. إذا أهنتني فسأعمل على طردك من هنا..

– وهل سمعتني أسأل مستر دافيدسون أن يزورني؟

فهمست مسز ماكفيل لصاحبتها:

–لا تردي عليها.

ولما ابتعدتا، انفجرت مسز دافيدسون في سخط:

–إنها وقحة، عديمة الحياء.

وبدت كما لو كانت توشك أن تختنق لفرط الغضب.

وصادفتاها تخطر نحو رصفة الميناء –وهما عائدتان من نزهتهما– في ثوب حريري، وقد أسرفت في زينتها، وتوجت رأسها بقبعتها البيضاء العريضة، ذات الأزهار التي نسقت حولها في شكل مبتذل، فصاحت تحييهما بصوت عال وهي تمر بهما. وابتسم ملاحان أمريكيان كانا يقفان على مقربة، حين لاحظا أن السيدتين تجاهلتا تحيتها في برود.

وما إن وصلتا إلى النزل حتى عادت الأمطار إلى الانهمار، فقالت مسز دافيدسون في سخرية:

– أخشى أن تفسد الأمطار عليها ثيابها وزينتها.

الفصل الخامس

عاد دافيدسون إلى المنزل ليجد زوجته وصديقاها قد أتوا على نصف غدائهما.. ومع أن ثيابه كانت مبللة إلا أنه رفض أن يغيرها، بل جلس صامتا واجما، واكتفى بلقمة واحدة من الطعام، ثم راح يحدق في الصيب المنهمر. ولم ينبس ببنت شفة حين حدثته زوجه عن المرتين اللتين التقت فيهما مع مسز ماكفيل– بمس تومسون، ولكن إمعان وجهه في العبوس، نم عن استيعابه حديثها ودل على أنه يستمع إليها، وإن كان لديه ما يحمله على الصمت، ويجعله عازفاً عن الكلام.

وسألته زوجه:

– ألا ترى أنه يحسن بنا أن نطلب إلى مستر هورن طردها من هنا؟.. أننا لن نصبر على إهانتها لنا.

فقال ماكفيل:

– لا أرى مكاناً آخر تستطيع الذهاب إليه.

– في وسعها أن تعيش في بيت أحد الأهالي الوطنيين.

– إن أكواخ الأهالي لا تصلح للسكنى في مثل هذا الجو.

فقال المبشر:

– لقد عشت في أحد هذه الأكواخ أعواماً، فكيف تراني استطعت ذلك إذن؟

وعندما أقبلت الخادم –وهي فتاة من أهل الجزيرة– تحمل إليهم بعض الموز، طلب إليها مستر دافيدسون أن تسال مس تومسون عن الوقت الذي تسمح له فيه أن يزورها. فلما انصرفت الخادم سألته زوجه في دهشة:

– ولِمَ تريد أن تزورها يا الفريد؟

– لا أستطيع أن أتصرف ضدها ما لم أهبها كل فرصة ممكنة.

– إنك لا تعرف أي نوع من النساء هي.. إنها قد تقوم بإهانتك.

– فلتهني.. فلتبصق علي.. ولكن لها روحاً، وسأبذل جهدي في سبيل إنقاذ هذه الروح الضالة.

غير أن ضحكات مس تومسون الهازئة كانت لا تزال تدوي في أذني زوجة المبشر، فأردفت:

– ولكنها قد توغلت في الإثم.

فأومضت عيناه، ورق صوته وقال:.. محال.. إن المذنب قد يذهب في الإثم إلى ما هو أعمق من أغوار الجحيم نفسه. ولكن حب الله يظل قادراً على أن يتغلغل إلى نفسه.

وعادت الخادم تحمل الرد، قائلة:

– مس تومسون تهديكم تحياتها، وتقول أنها ترحب بالأب دافيدسون في أي وقت شاء، طالما كان ذلك في غير ساعات العمل..

وتلقى الجميع الرد في صمت وجمود. وغالب الدكتور ماكفيل الابتسامة التي كانت تحاول أن ترتسم على شفتيه خشية أن يغضب زوجه.

وعمدت السيدتان بعد الفراغ من تناول الطعام إلى التطريز، وأشعل الدكتور ماكفيل غليونه بينما بقى دافيدسون في مقعده، يحدق في المائدة بنظرات جوفاء.. وما لبث أن نهض أخيراً فأوى إلى حجرته وهو صامت.

ولكنهم ما لبثوا أن سمعوا وقع قدميه وهو يهبط السلم، ثم طرقاته على الباب وصوت مس تومسون تصيح في تحد: "ادخل!"..

ظل معها ساعة، كان الدكتور ماكفيل خلالها يرقب قطرات المطر وهي تتساقط، وقد أوشك وقعها وارتطامها بزجاج النافذة أو بسقف المنزل المصنوع من الصاج، أن يستثير أعصابه.. فما كان مطر تلك الجزيرة رقيقاً هادئاً كأمطار انجلترا، بل أن المرء كان يتبين في قطراته تلك الروح الشريرة التي تبدو في كل شيء تتجلى فيه قوى الطبيعة على حقيقتها الفطرية العنيفة.. حتى ليخيل لك في بعض الأحيان أنك تكاد تصرخ في جنون إذا لم تكف هذه الأمطار عن الانهيار..

ثم لا تلبث أن تحس خوراً وكأنما سرى إلى عظامك مخدر هفا بأعصابك وتركك دون حراك.. والتفت ماكفيل حين عاد المبشر، فوجد المرأتين تتطلعان إلى القادم، الذي بادر الجميع قائلاً:

– لقد عرضت عليها كل فرصة، ودعوتها إلى التوبة، ولكنها امرأة ارتضت الخطيئة..

وصمت لحظة.. ورأى ماكفيل وجهه يزداد صرامة وعينيه تفعمان قسوة وعاد المبشر يقول في صوت رهيب:

– والآن، سأحمل لها السوط وسأصليها نيران حملتي حتى تثوب إلى رشدها.

وراح يذرع الحجرة، وقد زم شفتيه وتبدى العبوس والعزم على قسماته..

ثم قال:

– سأتبعها ولو فرت إلى أقصى أرجاء الأرض.. سأطاردها أينما حلت وأنزل بها نقمة الله التي توعد بها كل آثم شرير..

وتحول فجأة فغادر الحجرة.. وسمعوه يهبط السلم مرة أخرى، فتساءلت مسز ماكفيل:

– ما الذي ينتوي عمله؟

فقالت مسز دافيدسون وهي تنزع نظارتها وتمسح عدستها:

– لست أدري، فما أجرؤ أن اسأله، طالما كان في خدمة الله..

وندت منها زفرة قالت بعدها:

– لسوف يرهق نفسه، فهو لا يأبه لراحته ولا يدرك نتيجة ما يجشم نفسه من متاعب.. كم أخشى عليه عواقب هذا الإرهاق!

الفصل السادس

وعلم الدكتور ماكفيل أولى نتائج جهود المبشر ضد مس تومسون، من صاحب الخان الذي كانوا ينزلون به..فقد استوقف الرجل الطبيب وبادره وهو متجهم الوجه مربده:

– لقد لامني الأب دافيدسون إذ سمحت لمس تومسون بأن تنزل في حجرة بنزلي. ولكنني لم أك أعرف عنها شيئاً حين أجرتها الحجرة.. فلست أهتم بأن أعرف عمن يرغب في استئجار إحدى حجراتي، أكثر من مقدرته على دفع قيمة الإيجار لي، وقد دفعت مس تومسون أجر أسبوع مقدماً، فكان هذا خير دليل يطمئني إلى حقوقي.. أتراني أسأت أو أخطأت؟ أؤكد لك أنني لم أك أعرف شيئاً عن حقيقتها، وما كنت لأطرد رزقاً أتاني حتى بابي.

ولم يبغ الدكتور ماكفيل أن يخالف ما توحيه إليه نفسه، وأن يجاري المبشر فيما لا يقره عليه، فقال للرجل.

– إنه نزلك على كل حال، ونحن شاكرون لك أن قبلتنا فيه..

فتطلع إليه هورن في تشكك، فما كان ليوقن أن ماكفيل لا يقف في صف المبشر، وما لبث أن قال في تردد:

– إن المبشرين دائماً في عون بعضهم بعضا. ولو أنهم حملوا على

تاجر لاضطر إلى إغلاق متجره والنزوح عن البلد.. ولذا فإنني أخشى أن أغضب الأب دافيدسون.

– وهل طلب إليك أن تطردها؟

– لا.. بل قال أنه لا يجد ما يدعوه إلى ذلك طالما سلكت مسلكاً طيباً.. قال إنه يجب أن ينصفني، فوعدته أنني لن أسمح لها باستقبال زائرين جدد، وقد قابلتها وزجيت إليها هذه الرغبة..

– وكيف تلقتها؟

– ثارت علي وصبت جام سخطها..

– ما أراها إلا راحلة بعد أيام، فما أظنها تطيل المكث هنا إذا منع عنها الزائرون.

– ولكنها لن تجد مكاناً تأوى إليه، سوى بيوت الوطنيين، وما أخال أحداً منهم سيقبلها إذا عرف أن المبشرين يطاردونها.

* * *

في ذلك المساء جلس دافيدسون يحدثهم، وهم في قاعة الجلوس عن أيام دراسته.. وكان السكون يسيطر على الطابق السفلى، فقد جلست مس تومسون في حجرتها الصغيرة، وحيدة.. ولكن صوت الحاكي ما لبث أن انبعث عالياً، وكأنما شاءت أن تخدع نفسها وتتناسى عزلتها.. وخيل لهم أن الأنغام تتصاعد كصيحة استغاثة، ولكن دافيدسون لم يلق إليها بالاً، بل

استطرد في حديثه.. وراحت تومسون تضع (اسطوانة) في أثر أخرى، وكأنما هفت بأعصابها هدأ الليل الموحش الساكن النسيم.

* * *

في تلك الليلة لم يستطع ماكفيل وزوجه أن ينعما بنعاس.. بل استلقيا على سريرهما ينصتان إلى طنين البعوض المزعج ينبعث في جو الحجرة فيبدو في غمرة الصمت – كما لو كان أزيز سرب من الطائرات.

وما لبثت مسز ماكفيل أن تساءلت فجأة:

– ما هذا؟

وتناهى إليهما صوت دافيدسون يتسرب خلال الحاجز الخشبي الذي يفصل بين الحجرتين في نغم مسترسل مطرد، وفي حرارة وتوسل.. كان يصلي من أجل روح مس تومسون.

ومر يومان أو ثلاثة.. ولم تعد مس تومسون تحييهم –إذا التقت بهم في الطريق– في سخرية، أو بابتسام، بل كانت تمضي في سبيلها رافعة أنفها في الهواء، وقد تبدت على وجهها الملطخ بالأصباغ، مسحة من العبوس، وفي نظراتها تجاهل لهم..

وذكر صاحب النزل لماكفيل أنها سعت بحثا عن نزل آخر فلم توفق.. ولم يكن كثيراً عليهم أن يلاحظوا ما اعتراها من تطور..

كانت في الأمسيات، ترسل أنغام حاكيها عالية كالمعتاد، ولكن

اصطناع المرح كان يبدو جلياً في تصرفها.. كانت الألحان تنبعث وكأن رنة أسى تمازجها، كما لو كانت تنحو نحو اليأس والقنوط..

وحدث أنها أرسلت تلك الأنغام في يوم الأحد، فبعث المبشر إليها بهورن يرجوها أن تكف احتراماً لليوم المقدس، فانصاعت لرغبته، واحتضن النزل سكون لا تعكره سوى أنغام ارتطام قطرات المطر بالسقف المصنوع من الصاج.

وقال هورن لماكفيل في اليوم التالي:

– يبدو أن القلق قد بدأ يفري نفسها، فهي لا تدري ما يعتزم مستر دافيدسون أن يفعله إزاءها.

وكان ماكفيل قد لمحها في الصباح، فراعه أن شكلها المتحدي المتبجح قد تبدل كل التبدل وتراءت نظراتها كسيرة آسية..

وتطلع إليه هورن ثم سأله إن كان يعرف ما أنتواه المبشر ضد المرأة، ولكن الطبيب كان يجهل نيته.. وكان صاحب النزل قلقاً هو الآخر، يحس أن المبشر اعتزم أمرا غامضاً مبهما.. وكان يخال أنه يحوك شباكاً حول المرأة في دقة وحذر، حتى إذا أتمها، لن يلبث أن يحكم قيودها حولها..

والواقع أن الجميع –الطبيب وزوجه، بل وزوج المبشر– كانوا في قلق وحيرة، فإن دافيدسون لم يعد يتحدث عن مس تومسون بسوء أو بخير، ولم يعد يفصح عما في نفسه من سخط عليها، أو ما اعتزمه لتأديبها ولردعها

عن غيها، ولحملها على التفكير عن كل ما أتته، وعلى التوبة عن ذنوبها وخطاياها.. بل لاذ بصمت كان يضاعف من رهبته ما يبدو على أساريره من عبوس واكفهرار.. ولكم أوحي هذا لماكفيل نفسه - لا لهورن وحده- أن الرجل قد انتوى للغانية عقاباً قاسياً، لن يقتصر على اقصائها عن النزل وحده، بل ولا عن الجزيرة بأسرها، بل أنه قد يحطمها ويذلها..

وعاد هورن يقول:

- لقد كلفني أن أنبئها أن كل ما عليها -إذا راجعت نفسها وأحست بحاجة إليه- أن ترسل إليه فيخف لإجابتها.

- وبما أجابتك حين أبلغتها هذه الرسالة؟

- لم تقل شيئاً، لا ولم انتظر حتى تجيب، فقد خشيت أن تنفجر باكية.

- لا شك عندي في أن الوحدة تؤثر على أعصابها أسوأ تأثير. والمطر أيضاً، بل إنه وحده كفيل بأن يسوق المرء إلى الجنون.. ألا يكف المطر في هذا المكان اللعين؟

- إنه ينهمر باستمرار تقريباً، في موسم الأمطار، حتى ليبلغ معدله ثلثمائة بوصة في السنة.. ويقال أن شكل الخليج وموقعه يجتذبان الأمطار من كل أرجاء المحيط الهادي.

- لعنة الله على شكل الخليج وموقعه!

وحك جلده من أثر لدغات البعوض.. كان الملل قد بدا يهفو

بأعصابه.. وحتى إذا كفت الأمطار وأشرقت الشمس، فإن المكان كان يبدو كالمرجل وكان يجمع بين القيظ المرهق المزهق للأنفاس، والرطوبة الندية، بل حتى الأهالي بذلك الوشم الذي كان يملأ جلودهم، وبشعورهم المصبوغة الملونة، كانوا يتراءون له وكأنهم نذر الشر، تدفع الغريزة الفطرية المرء على أن يرهبهم ويتحرز منهم، إذ يخال أنهم في أية لحظة لن يلبثوا أن يتسللوا في أعقابه في خفة وخلسة، فيغمد أحدهم خنجراً بين كتفيه.. كانوا يبدون كأشباح رهيبة تنبعث من ماض سحيق.. كرسل للشر والخوف!

وكان المبشر في رواح وغدو، بادي الانشغال، ولكن ماكفيل وزوجته لم يوفقا إلى معرفة ما كان يفعل أو يدبر، حتى حدث هورن الطبيب يوماً بأن المبشر يذهب للقاء الحاكم كل يوم..

وما كان الطبيب ليحدس ذلك، فعجب مما يدعو المبشر إلى أن يكثر من التردد على الحاكم.. وأوحى له شعور خفي بأن لهذه الزيارات علاقة بالخطة التي يدبرها دافيدسون لعقاب مس تومسون فوجف قلبه إشفاقاً على المرأة، وتمنى لو يعرف شيئاً عن هذه الخطة.. ولكنه لم يجد من نفسه الجرأة كي يسأل المبشر خشية أن يكون شعوره هذا صادراً عن وهم خاطئ، فلا يكون لزيارته للحاكم علاقة بمس تومسون، فيعد سؤاله فضولاً وتدخلاً فيما ليس له حق التدخل فيه.

ولكن المبشر نفسه لم يلبث أن أورد ذكر الحاكم على لسانه ذات يوم، فقال عنه:

– إنه يلوح حازماً، ولكنك لا تكاد تطالبه بالعمل حتى تجده يتراخى..

فسأله الطبيب في مزاح:

– أظنك تقصد أنه لا يريد أن يعمل ما تبغيه تماماً.

ولكن المبشر لم يبتسم، بل قال:

– إنني أريده على أن يعمل ما فيه الصواب، فما ينبغي أن يضطر المرء إلى إغراء شخص على فعل الخير..

– ربما اختلفت الآراء في تقرير وجه الصواب.

– إذا وجدت رجلاً جرحت ساقه وتعفن الجرح وتسمم، فهل تصبر على جدال شخص يتردد في إقرار بترها؟

– ولكن التعفن والتسمم من الظواهر المادية الملموسة.

– والشر؟.. إن الشر مثله مثل التعفن والتسمم.. بل هو أشد وطأة وأسوأ أثراً.

وما لبث ما دبره دافيدسون أن انكشف للآخرين.. فما كاد النزلاء الأربعة يفرغون من غذائهم، وقبل أن يهموا باللجوء إلى مضاجعهم ليقيلوا، هرباً من القيظ الفظيع حتى دفع الباب فجأة وفي عنف، ونفذت مس تومسون، فأجالت بصرها في الحجرة ثم تقدمت نحو دافيدسون صائحة وهي تتميز غضباً وحنقاً:

– ما الذي قلته عني للحاكم أيها الكلب الحقير؟

وسادت لحظة صمت، ثم سحب المبشر مقعداً وقال لها:

– هلا جلست يا مس تومسون؟.. لقد كنت أرجو أن يكون لي معك حديث آخر.

– إنك وغد دنيء!

وتدفق من فيها سيل من الشتائم والإهانات والسباب البذيء، ولكن دافيدسون ظل يرمقها في هدوء بعينين آسيتين، وما لبث أن قال:

– لست أحفل بالسباب الذي تهيلينه على رأسي يا مس تومسون، ولكنني مضطر أن أرجوك أن تراعي وجود السيدتين في الحجرة، فتمسكي لسانك عن بذيء القول في حضرتهما.

وكانت الدموع قد بدأت تملأ مقلتيها لفرط الغضب، بينما امتقع وجهها واحتقن، فتساءل الدكتور ماكفيل:

– ما الذي جرى؟

فقالت مس تومسون:

– لقد جاءني شخص يعلنني أن لابد لي من مغادرة الجزيرة على السفينة التالية، بأمر من الحاكم..

والتمعت عينا المبشر وإن ظل وجهه جامداً ساكن الأسارير، ثم قال:

– ما أظنك تنتظرين أن يدعك الحاكم تمكثين هنا تحت هذه الظروف.

فصرخت قائلة:

–إنك أنت الذي البته علي.. لن تستطيع أن تنكر.. أنت الذي فعل ذلك، لابد أنك ذكرت له ما استثاره ضدي، وما جعله يرى في شخصي شرا يحسن التخلص منه.

– ما أود أن أخدعك، فقد حملت الحاكم على أن يتخذ الخطوة التي تحتمها عليه واجباته.

– ولم لا تدعني وحالي؟ إنني لم أؤذك أو أمسك بسوء.

– ثقي أنك لو أذيتني لوجدتني آخر من ينتقم لنفسه، فأنا لا أحفل بما يصيب شخصي وإنما يستثيرني ما يسيء إلى الدين والفضيلة.. يحفظني ما يغضب الله وما يمس واجباتي كخادم أوقف حياته على خدمة الدين.

– أو تظنني أريد الإقامة في هذا المكان الذي يدعونه نزلا زيفا وبهتانا؟

– في هذه الحالة لا أرى ما يدعوك إلى الشكوى.. ومادمت راغبة في الإقامة هنا، فلم لم تنتقلي إلى مسكن آخر.. وإذا كنت عازمة عن البقاء في الجزيرة ففيم الغضب من قرار الحاكم؟

فندت منها صيحة غضب كالبكاء واندفعت مغادرة الحجرة مخلفة

وراءها صمتاً دام لحظة قصيرة ثم لم يلبث دافيدسون أن قال:

– كم أشعر بالارتياح إذ أرى الحاكم قد تحرك للعمل أخيراً، فهو رجل ضعيف متردد.. وقد قال أنها على كل حال لن تمكث هنا سوى أسبوعين ترحل بعدهما إلى آبيا حيث تكون تابعة للقانون البريطاني مباشرة، مما لا يدع له مجالاً للتدخل.

وقفز من مقعده، فخطا في عرض الحجرة قائلاً:

– إن تهرب رجال السلطات من المسئولية أمر مزعج، فهم يتكلمون كما لو كان الشر المستتر عن أعينهم لا يعتبر شراً يحسب حسابه وكأني بالمسئول منهم إذا ما نبه إلى ما يخشى منه الضرر لا يرى داعياً لتدخله ما لم يحدث الضرر فعلاً و"تقع الفأس في الرأس" فلا يمكن تدارك العاقبة. أن نفس وجود هذه المرأة فضيحة لن يقلل من وصمتها انتقالها إلى جزيرة أخرى، ووجدتني مضطراً في النهاية إلى أن أكلمه في صراحة وحزم.

وقطب جبينه، وأبرز فكه في عناد وتحد وإصرار، واستطرد يقول إذ لمح العجب يرتسم على محيا الطبيب:

– إن مركز الحاكم لا يجعل منه إلهاً فوق كل نقد.. وإذا كان نفوذه هنا هو الأعلى، وليس بعد كلمته من كلمة، فإن الله لم يحرم المبشرين – أمثالي– من منفذ آخر يؤثرون به على الحكام. أجل، أن إرساليتنا ليست معدومة النفوذ في واشنطن، لاسيما وهي تؤدي للسلطات، الحاكمة أجل الخدمات وأبعدها مدى في هذه البقاع، فهي بالدعوة الدينية، وبتنوير

عقول الأهالي الجهلة الذين لم يتحرروا بعد من غرائزهم الفطرية، إنما تروض نفوسهم وتكسر من حدة شراستهم. وتحملهم بطريق غير مباشر، على الخضوع للسلطات، وعلى مساعدة ممثليها.. أعرفت إذن كيف جرؤت على أن أكلم الحاكم في "صراحة وحزم".. لقد صارحته بأن أية شكوى ضد السياسة التي يعالج بها الأمور هنا، لن تعود عليه بالخير.. وإنه ليدرك تماماً– كما يدرك غيره من الموظفين، ومن التجار البيض في هذه البقاع– قيمة شكوى المبشرين إذا لم يجدوا معونة أو تعضيداً من السلطات.

وسيطر الصمت لحظة ثم سأله الطبيب:

– ومتى ينبغي عليها الرحيل؟

– ستصل الباخرة القادمة من سيدني إلى سان فرانسيسكو يوم الثلاثاء، وعليها أن تستقلها.

وأرسل الطبيب من بين شفتيه صفيراً خافتا نم عن دهشته وعن أنه فوجئ بما كان يسعى إلى التعرف عليه من قبل.. كان في قلق وتساؤل من صمت المبشر إزاء مساوئ مس تومسون وكان في هذا العقاب ليقتصر على نفي المرأة من الجزيرة فحسب، بل ونفيها على أول باخرة تصل إلى الجزيرة، أي بعد خمسة أيام فقط.. والأنكى من هذا وذاك، أن هذه الباخرة ستعود بها من حيث أتت.. فأية صدمة للمرأة المسكينة!

ولم يجد الدكتور ماكفيل وسيلة لقتل السأم الذي بدأ يحسه خلال المدة التي شاءت الظروف أن تضطره وزوجه إلى البقاء فيها في الجزيرة،

سوى أن يقصد ضحى كل يوم على مصح الجزيرة، فيشغل نفسه في مساعدة طبيب المصح على أداء واجباته.. فيقضي بضع ساعات في تفحص المرضى الجدد أو عيادة القدماء منهم، أو تضميد بعض الجراح، أو معاونة طبيب المصح في إجراء بعض العمليات.

وكانت فرصة سانحة لماكفيل كي يرى مرض الفيل ويتعرف عن كثب على أعراضه ويباشر بنفسه علاج بعض حالاته.. فقد كان هذا المرض متفشياً في الجزيرة.. وقد ثابر الطبيب على هذه الزيارة للمصح في الأيام الأخيرة..

الفصل السابع

في اليوم التالي لهذه الحوادث التي وقعت في الفصل السابق، بكر الطبيب في الذهاب إلى المصح فقضى فيه حتى ساعة متأخرة من الضحى، ثم اتخذ طريقه عائداً إلى النزل. فلما بلغه واجتاز فناءه استوقفه صاحب البيت قائلاً:

– معذرة يا دكتور ماكفيل.. إن مس تومسون مريضة، فهل لك في أن تلقي نظرة عليها؟

ولم يفض ماكفيل في رد، بل أجاب لتوه:

– بكل تأكيد..

وقاده هورن إلى حجرتها، فإذا بها تجلس واجمة ساهمة مكتئبة، لا تأتي عملاً، بل تحدق في فراغ الحجرة بنظرات فارغة، وقد ارتدت ثوبها الأبيض وقبعتها العريضة ذات الأزهار.

ولاحظ ماكفيل الشحوب الشديد والاكفهرار الذين كانا يكسوان وجهها رغم الأصباغ والمساحيق، كما لاحظ نظراتها الحزينة القاتمة.. وما كانت أية عين رأتها –ولو مرة واحدة– لتغفل عن إدراك التطور الذي ألم بها..

وبادرها قائلاً:

– آسف لما بلغني عن توعكك..

– بل إنني لست مريضة في الواقع، وإنما ادعيت ذلك لأنني كنت أريد أن أراك وخشيت أن ترفض.. لقد أمرت أن أغادر الجزيرة على باخرة تقصد سان فرانسيسكو.

وتجلت في عينيها نظرة فزع.. وأخذت يداها تنبسطان وتنقضبان في حركة عصبية.

وقال الطبيب:

– لقد عرفت ذلك.

فشهقت وقالت:

– ولكنني لا أرتاح للذهاب إلى سان فرانسيسكو في الوقت الحاضر.. لقد ذهبت لأقابل الحاكم بالأمس، ولكنني لم أوفق للقائه، بل تلقاني عنه سكرتيره وذكر لي أنه لا مناص لي من أن استقل تلك السفينة.

وصممت على أن أقابل الحاكم نفسه، فانتظرته أمام بيته هذا الصباح، حتى إذا خرج تحدثت إليه.. وأصارحك أنه كان عازفاً عن حديثي، ولكنني لم أهن أو أيأس، بل حملته على الإنصات إلي، وأجابني أخيراً بأنه لا يمانع في بقائي حتى السفينة التالية، التي تقصد سيدني، إذا وافق الأب دافيدسون.

وأمسكت عن الحديث، وتطلعت إلى الطبيب في تساؤل فقال:

– لست أدري ما الذي أستطيع أن أفعله في هذا الصدد؟

– ظننت أنك ربما قبلت أن تسأله هذه الموافقة، وأقسم بالله أنني لن آتي عملاً يغضبه لو أنه سمح لي بالبقاء.. بل إنني لن أغادر النزل إذا راق له ذلك، على أن المدة لن تتجاوز الأسبوعين، ريثما تصل الباخرة الميممة شطر سيدني فأستقلها وأرحل عليها.

– سأفاتحه في هذا الصدد..

فقال هورن، وكان قد صحب الطبيب إلى الحجرة، وبقى عند بابها طيلة الحديث:

– إنه لن يقبل وسيصر على رحيلك يوم الثلاثاء، فتدبري في الأمر..

فقالت للطبيب:

– قل له أن بوسعي أن أجد عملاً في سيدني.. أعني عملاً شريفاً.. إنني لا أسأله شيئاً كثيراً، وما أظنه يصر على رأيه إذا ما عرف أنني أسعى إلى عمل شريف، وإنني سأطلق إذا وصلت إلى سيدني، هذه الحياة، فأسلك مسلكاً جديداً.

– سأبذل ما في وسعي..

– وهل تأتي وتخبرني بما يتم؟.. إنني لن أحس راحة أو أغادر مجلسي حتى أطمئن إلى حل هذه المسألة.. كيفما كان هذا الحل!

وما كانت هذه المهمة بالتي يرتاح إليها الطبيب أو يسر بأدائها، فقد

أحس بالارتباك بداخله كلما فكر فيما يقوله للمبشر، وخيل إليه أنه سيخجل فلا يقوى على مفاتحته في الأمر، وحتى إن فعل فلن يحتمل أن يبوء بالفشل إذا أصر المبشر على رحيل المرأة، ورفض الرجاء.

ومن ثم فقد سلك مسلكاً غير مباشر، إذ حكى لزوجه ما سمعه من مس تومسون، ورجاها أن تحمل الرسالة إلى مسز دافيدسون..

والواقع أنه كان يرى أن موقف المبشر لا يدعوه إلى أي تشدد أو تشبث، ولكنه كان يخشى أن يفشل في مهمته، فعمد إلى هذا السلوك..

ولكن المبشر كان على النقيض، فما جبن أو خجل من أن يتحدث إليه في الأمر وجهاً لوجه بل جاءه قائلاً:

– أخبرتني مسز دافيدسون أن مس تومسون حملتك حديثا لي..

وارتبك الطبيب وغمره الحياء، ثم قال:

– الواقع إنني لا أرى فارقاً يذكر فيما إذا ذهبت إلى سيدني بدلاً من سان فرانسسكو.. وطالما سلكت سلوكاً طيباً خلال فترة بقائها هنا، فلست أرى ما يدعو إلى الإصرار على رحيلها في أول سفينة.

فرمقه المبشر بنظرة قاسية وقال:

– ولم تراها غير راغبة في العودة إلى سان فرانسيسكو؟

– لم أسألها. فإنني أعتقد أن من الخير للمرء أن لا يعني إلا بشؤونه..

ولعله أخطأ بهذا الجواب الذي خلا من كل حيلة وسياسة. فقال المبشر:

– لقد أمرها الحاكم أن ترحل على أول سفينة تبارح الجزيرة. وقد فعل بذلك ما يحتمه عليه واجبه. فليس لي أن أتدخل في الأمر أو أن أتوسط لديه كي يلغي ما سبق أن حملته على إصداره من أمر.. إن وجودها هنا خطر على الفضيلة والدين. فكل لحظة تعجل برحيلها عن الجزيرة كسب لهما..

– أظنك تبالغ في القسوة والظلم..

وحدقت السيدتان في الطبيب في ارتياع، ولكنهما لم تجدا ما يدعوهما إلى أن تخشيا شجاراً ينشب بين الرجلين، إذ ابتسم المبشر في رفق وقال:

– آسف كل الأسف إذ يكون هذا ظنك في يا دكتور ماكفيل.. ثق أن قلبي ينزف دماً أسفاً لهذه التعسة، ولكنني أؤدي واجبي فحسب.. إنني متألم لها، حزين لحالها، أود لو استطعت أن أهدي روحها لضالة إلى سبيل الرشاد وإلى ما فيه راحتها وطمأنينتها. ولقد حاولت ذلك، وأنت تعرف، ولكنها أبت واستكبرت، فلم يعد لدي سوى أن أفعل ما يقتضيه واجبي فأعمل على إبعادها.

ولم يجب الطبيب، بل راح يطل من النافذة مهموماً.. وللمرة الأولى رأى السماء صافية والأمطار قد انقطعت عن الهطول.. وتبدت له الأشجار تملأ الفراغ حتى الخليج، وقد استقرت بينها أكواخ الأهالي الوطنيين، فما لبث أن قال:

– أرى أن انتهز فرصة انقطاع الأمطار، لأخرج للرياضة.

فقال المبشر في ابتسامة حزينة:

– أرجو أن لا تحمل في نفسك حقداً لي إذ أعجز عن إجابة رغبتك.. إنني أكن لك احتراماً كبيراً يا دكتور، ولسوف يؤسفني أن تسيء الظن بي.

فقال الطبيب في جفوة:

– أوقن أنك تحسن الظن بنفسك إلى درجة لا تمكنك من تحمل آرائي، أو الاهتمام لها

فقهقه المبشر.. وانصرف الطبيب وهو مستاء من نفسه إذ انفعل لغير ما سبب هام يدعو للانفعال.. وهبط لتوه إلى حيث كانت مس تومسون في انتظاره وقد تركت باب الحجرة مفتوحاً على مصراعيه حتى يعود، فبادرته متلهفة:

– هل حدثته؟

فقال وهو يتحاشى النظر إليها:

– أجل، وآسف لأنه رفض أن يفعل شيئاً.

ولكنه ما لبث أن التفت إليها إذ سمعها تشهق باكية.. ورأى وجهها قد أبيض لفرط الجزع، فأحس بأسى وحسرة وإشفاق، وفجأة خطرت له فكرة فصاح:

– لا يحق لك أن تفقدي الأمل.. إنني أعتقد أن من العار أن يعاملوك هذه المعاملة، ومن ثم فسأذهب لمقابلة الحاكم، وأحدثه بنفسي عنك، وأصارحه بقصتك ورجائك، وما أظنه بعد ذلك سيصر على ما أصر عليه دافيدسون.. أجل سأذهب إليه.

فهتفت:

– الآن؟

وهز رأسه في تأكيد، فأشرق وجهها وقالت:

– لعمري، إن هذا لكرم منك.. إنني واثقة من أنه سيسمح لي بالمكث لو أنك كلمته في شأني.. وأعدك أنني لن آتي ما لا ينبغي إتيانه من أعمال وتصرفات طيلة فترة بقائي هنا..

وما كان الدكتور ماكفيل ليدرك في الحق ما حمله على أن يفكر في أن يتوسط للمرأة لدى الحاكم، فما كان شأن مس تومسون ليهمه في قليل أو كثير، ولكن المبشر كان قد آثار في نفسه روح التحدي والرغبة في مساعدة المتعوسة، لاسيما وقد وجد دافيدسون يشتط في القسوة عليها، في الوقت الذي تصارحه هي فيه بأنها إذا وصلت إلى سيدني، فستبحث عن عمل شريف ترتزق منه، وتقلع عن سيرها المعوج الحالي..

ووجد الحاكم في داره، فلما اطمأن في حضرته قال له:

– جئت أسعى لرؤيتك من أجل امرأة تدعى مس تومسون تتنزل في نفس النزل الذي نقيم فيه.

فقال الحاكم مبتسماً:

– أظنني سمعت عنها ما فيه الكفاية يا دكتور ماكفيل، وقد أمرتها أن تغادر الجزيرة يوم الثلاثاء المقبل، وهذا غاية ما أستطيع عمله.

– إنما أردت أن أسألك ما إذا كان بوسعك أن تتسامح فتدعها تمكث هنا حتى تصل السفينة القادمة من سان فرانسيسكو، فتستقلها إلى سيدني.. ولسوف أضمن لك حسن سلوكها خلال فترة الانتظار..

ظل الحاكم على ابتسامة، وإن ضاقت حدقتاه وتبدي الجد في نظراته، ثم قال:

– كان يسرني أن أجيب رجاءك يا دكتور ماكفيل، ولكنني أصدرت أمراً، فلا سبيل إلى سحبه.

وراح الطبيب يشرح القصة في كل بلاغة وسعة، فكف الحاكم عن الابتسام، وأنصت في وجوم مما أوحي إلى الطبيب أنه يحاول دون جدوى.

وقال الحاكم أخيراً:

– يؤسفني أن لا أستطيع عمل شيء يلائم راحة هذه السيدة، فلابد لها من أن تبحر يوم الثلاثاء وهذا كل ما لدي في هذا الصدد.

– وما الفرق بين رحيلها يوم الثلاثاء، وبقائها حتى وصول السفينة الميممة شطر سيدني؟

– معذرة يا دكتور، فلست أرى لأحد سوى السلطات المختصة، حق سؤالي عما يبرر أعمالي الرسمية.

فرمقه ماكفيل بنظرة حادة، وتذكر ما أشار إليه دافيدسون من أنه لم يحمله على إصدار أمره برحيل المرأة إلا حين هدده، فقرأ على هدى هذه الذكرى شيئاً من الاضطراب في تصرف الحاكم، فلم يسعه إلا أن يهتف في حرارة:

– إن دافيدسون لداهية لعين.

– لا أكتمك يا دكتور ماكفيل، إنني لم أكون عن مستر دايفدسون في نفسي فكرة حسنة، ولكنني أجدني مضطراً لأن أعترف لك أيضاً انه لم يتعد حقوقه حين بين لي ما في وجود امرأة في مثل أخلاق مس تومسون، من خطر على مكان كهذا.. ولا شك أن واجبي بعد أن علمت هذا، يحتم علي أن أتخذ من الإجراءات ما يكفل تجنب هذا الخطر وتلافيه.

ونهض إيذانا بانتهاء الزيارة، فأحس الدكتور ماكفيل بارتياح لهذا الانتهاء، وأن داخله في نفس الوقت خجله لفشله في مهمته، حتى أنه أشفق من لقاء مس تومسون التي كان يعلم أنها ترقبه في قلق، فنفذ إلى النزول من الباب الخلفي وصعد السلم في تسلل كما لو كان قد أتى ما يدعوه إلى التخفي والاستتار.

وعندما حان وقت العشاء، جلس صامتاً متضايقاً، ولكنه لاحظ أن المبشر كان بادي الانبساط وفطن إليه وهو يرمقه بين الحين والآخر بنظرة المزهو المنتصر، فخطر له فجأة أن دافيدسون قد علم بأمر زيارته للحاكم، وما باء به من خيبة، ولكنه حار حين فكر في الوسيلة التي تمكن بها المبشر من هذا العلم، وأحس بقلق من قوة هذا الرجل ونفوذه.. خيل إليه أنه كالعنكبوت ينشر خيوطه حول الفريسة فيحوطها بها ليضمن أنه إذا هاجمها فاز بها.

وهكذا أحاط دافيدسون مس تومسون بشباك خطته..

ورأى هورن في الشرفة بعد العشاء فلمح أنه يشير إليه خلسة وأدرك أنه يحمل إليه أخباراً عن المرأة المسكينة، أو لعلها أوفدته إليه في شأن، فسار إليه كأنما يبغي أن يجاذبه حديثاً قصيراً يسري به عن نفسه، حتى إذا اقترب منه، همس له هورن:

– إنها تتساءل عما إذا كنت قد قابلت الحاكم..

– أجل، ولكنه رفض أن يتسامح.. إنني جد آسف إذ لا أستطيع أن أفعل أكثر مما فعلت لقد شرحت كل شيء له بل ذهبت إلى أبعد من هذا فوعدته أن أضمن حسن سلوكها طيلة المدة التي ستبقاها.. ولكنه أصر على الرفض.

– كنت أعرف أنه لن يقبل، فهم لا يجرؤون على مقاومة المبشرين.

وعاد الطبيب إلى القاعة فشارك الآخرين الراحة التي اعتادوا أن يخلدوا إليها بعد كل وجبة.. وما لبثوا أن سمعوا طرقات واهنة على الباب فصاحب مسز دافيدسون بصوتها الحاد تدعو الطارق للدخول.

ولكن القادم حار في فتح الباب فنهضت وفتحته.. ورأوا مس تومسون تقف عند عتبته..

وأذهلهم التغير الغريب الذي طرأ على مظهرها، فلم تعد تلك الوقحة السليطة التي هزأت منهم في الطريق، بل غدت امرأة مروعة مهدمة ذليلة.. فكان شعرها بتناثر مشعثا في فوضى فوق عنقها.. وكان الثوب الذي ترتديه متهدلا قديما.

ووقفت لدى الباب لا تجسر على الدخول والدموع تسيل على خديها مدراراً..

وسألتها مسز دافيدسون في خشونة:

– ماذا تريدين؟

فقالت في صوت متهدج:

– أيمكنني أن أتحدث إلى مستر دافيدسون؟

فنهض المبشر عن مقعده وتقدم منها قائلاً في ترحاب:

– تفضلي بالدخول يا مس تومسون.. ما الذي استطيع أداءه من أجلك؟

فدخلت وقالت:

– إنني آسفة لما بدر مني نحوك منذ أيام و.. و.. لكل شيء آخر أسأت به إليك.. ولكنني كنت منفعلة فأرجو أن تصفح عني.

– لا عليك فإن صدري أوسع من أن يضيق بما قلت فخطت نحوه في حركة كلها ضراعة وذلة وقالت:

– الحق أنك غلبتني على أمري، وإني لاعترف صراحة، ولكنني لا أدري ما الذي يجعلك تصر على إعادتي إلى سان فرانسيسكو؟

فتلاشت رقته وخبا وميضها وتبدت الصرامة والجد في صوته فجأة وهو يسألها:

– ولم لا تريدين العودة إلى هناك؟

فقالت في تذلك:

– إن أهلي يقيمون هناك، ولا أحب أن يروني في هذه الحال.. إنني مستعدة لأن أذهب إلى أي مكان آخر ترضاه.

– لماذا لا تريدين العودة إلى سان فرانسيسكو؟

– لقد ذكرت لك ما يدعوني لذلك.. إن أسرتي هناك، ولا شك أنهم يقتلونني لو أنهم التقوا بي وأنا في مثل هذه الظروف التي أعيش فيها.

فمال نحوها، وحدق فيها حتى لاح كأنما كانت عيناه المتألقتان تسعيان إلى التغلغل نحو روحها.. وهتف فجأة:

– آه.. أتخافين السجن؟

فصرخت ثم ارتمت على قدميه صائحة:

– لا تعدني إلى هناك.. أقسم لك أمام الله أنني سأهتدي وأطرح عني مسلكي الحاضر.

وانفجرت في سيل من التوسل وقد جرت الدموع على خديها الملطختين بالأصباغ.. فانحنى عليها، ورفع رأسها حتى التقى بصرها ببصره وسألها:

– أحق هذا؟.. أحقاً أنك تخافين العودة لأن السجن في انتظارك؟

– لقد فررت قبل أن يقعوا علي وإلا لقضيت فيه ثلاث سنوات.

فأفلت رأسها من يده فتهاوت المرأة متهالكة على الأرض تنتحب في حرارة ونهض الطبيب قائلاً:

– هذا كفيل بأن يغير الموقف، وما أراك راداً إياها إلى سان فرانسيسكو بعد إذ علمت ذلك.. هبها فرصة أخرى، فإنها تعتزم أن تبدأ صفحة جديدة ناصعة..

– سأهبها أحسن فرصة عرضتها.. إذا كانت قد اعتزمت التكفير فلتحتمل العقاب.

وأساءت فهم كلماته، فتطلعت إليه وفي عينيها بصيص من الأمل وقالت:

– هل ستتركني وشأني؟

– لا، بل ستبحرين إلى سان فرانسيسكو يوم الثلاثاء.

فانبعث منها صرخة ذعر أعقبتها أنات منخفضة أجشة أبعد ما تكون عن أن تصدر عن إنسان.. وراحت تضرب رأسها بالأرض في عنف فقفز الدكتور ماكفيل ورفعها بين ذراعيه قائلاً:

– رويدك فما ينبغي أن تفعلي هذا.. يحسن بك أن تأوي إلى حجرتك فتخلدي إلى الرقاد، وسأبحث لك عن دواء يخفف عنك.

وأقامها على قدميها وسار بها إلى السلم وهو يكاد يحملها حملا، والنقمة تملأ قلبه نحو مستر دافيدسون ونحو زوجته لأنهما لم يساعدا المسكينة المتعوسة.

ولقي صاحب النزل لدى الباب، فساعده على حملها إلى فراشها وهي تئن وتبكي وقد بدت شبه فاقدة وعيها، فأسعفها بحقنة ثم عاد إلى الطابق العلوي وهو بادي الإنهاك فإذا زوجه وزوج المبشر باقيتان على نفس الموقف الذي خلفهما عليه فما تحركتا أو نبستا ببنت شفة في غيابه.

وقال له دافيدسون في صوت غريب عميق:

– كنت انتظر عودتك فإنني أريد أن تصلوا جميعاً معي من أجل روح أختنا الخاطئة.

وأحضر الكتاب المقدس وجلس على المنضدة التي تناولوا عليها العشاء، ولا تزال عليها بقية من الفضلات والأدوات.. وفي صوت قوى عميق، مدو في جرس ورنين راح يقرأ فصلاً منه، حتى إذا أتمه، دعاهم إلى الركوع ليصلوا.. وانهمك في صلاة طويلة حارة دعا فيها الله أن يشمل رحمته المرأة المذنبة.

وغطت مسز ماكفيل ومسز دافيدسون وجهيهما بكفيهما، بينما فوجئ الطبيب بأعمال المبشر فركع مثلهم في سكون.. وكانت صلاة المبشر بليغة رائعة.. وكانت الألفاظ تتدفق من فمه بين سيل من الدموع راح يجري غامراً وجنتيه... وكان المطر ينهمر في الخارج عنيفاً مدراراً متواصلاً.

وانتهت الصلاة أخيراً، فوقفوا.. وتبدي وجه مسز دافيدسون شديد الشحوب، ولكنه كان منبسطاً.. كانت قد أحست راحة وهدوءا، جعل ماكفيل وزوجه يخجلان من نفسيهما لأنهما لا يضارعان هذين الزوجين إيماناً وتقوى، حتى لقد حارا كيف يوجهان أبصارهما ليتحاشيا نظرات المبشر وزوجه أن تلتقي بهما.

وما لبث الطبيب أن قال:

– سأهبط لأرى ما تطورت إليه حالها الآن.

وعندما طرق باب حجرة مس تومسون.. فتح له الباب صاحب النزل.. وكانت المرأة مستلقية في مقعد متأرجح، وقد انخرطت في بكاء صامت.

فصاح ماكفيل:

– كيف تجلسين هنا؟ ألم أنصحك أن تنامي؟

– لا استطيع.. أريد أن أرى مستر دافيدسون.

– أي خير ترتجينه من ذلك يا طفلتي المسكينة؟ إنك لن تستطيعي أن تزحزحيه عما عقد عليه عزمه.

– لقد وعدني أن يأتيني إذا أنا دعوته.

فأشار ماكفيل إلى هورن وطلب إليه أن يدعو المبشر.. وبقى معها حتى جاء.. فما رأته المرأة حتى بادرته وهي تتطلع إليه بنظرات مهمومة:

– معذرة إذا استدعيتك وجشمتك عناء المجيء..

– بل إنني كنت أترقب دعوتك.. فقد أدركت أن الله سيستجيب صلاتي.

وحدق كل منهما في الآخر لحظة.. ثم أشاحت وجهها.. وظلت تنظر في اتجاه آخر متحاشية نظراته.. وهي تقول:

– لقد كنت امرأة خاطئة، ولكنني أريد أن أتوب وأكفر عن ذنوبي..

– الحمد لله.. الحمد لله.. لقد استجاب صلواتنا. وتحول نحو الرجلين قائلاً:

– دعاني أخلو إليها.. وقولا لمسز دافيدسون أن صلواتنا أجيبت.

فخرجا وأغلقا الباب خلفهما.

الفصل الثامن

لم ينم الدكتور ماكفيل –في تلك الليلة– إلا في ساعة متأخرة، ولذا فقد أحس بالمبشر حين صعد قافلاً إلى حجرته.. فألقى على ساعته نظرة، فإذا هي تشير إلى الثانية صباحاً.. وأدرك أيضاً أن الرجل لم يأو إلى فراشه لتوه، فقد تناهى إليه صوته خلال الحاجز الخشبي الذي يقوم بين الحجرتين.. وهو يصلي في صوت مرتفع، صلاة طويلة غشي النوم خلالها عيني الطبيب، فلم يفطن متى انتهت..

فلما رآه في اليوم التالي، دهش لمظهره.. كان شديد الشحوب –بل أشد شحوباً منه في أي يوم سابق– بادي الإنهاك والتعب، ولكن عينيه كانتا تتألقان بلهيب خارق.. ولاح كأنما ملأت صدره غبطة غامرة..

وبادره المبشر قائلاً:

– أرجو أن تهبط في الحال فترى سادي.. لست أرجو أن تكون صحتها الجثمانية على ما يرام، ولكن روحها قد تبدلت.

وأحس الطبيب بضيق وانفعال.. وما لبث أن قال:

– لقد بقيت معها إلى ساعة متأخرة جداً في الليلة الماضية.

– أجل، فما احتملت أن انصرف وأتركها..

فقال الطبيب في لهجة لاذعة:

– أراك تبدو مسرورا، شديد الاغتباط..

فشعت عينا المبشر نشوة وسروراً وهتف:

– لقد منحت نعمة كبرى.. ففي الليلة الماضية أعدت إلى حظيرة الدين روحا ضالة..

* * *

وكانت مس تومسون تجلس في المقعد المتأرجح حين ولج الطبيب حجرتها.. ومازال فراشها كما غادرته حين استيقظت، لم ترتبه أو تسو ملاءاته، ومازالت الحجرة تشيع فيها الفوضى.. بل إنها لم تكبد نفسها مشقة استبدال ملابسها، فكانت في ثوب متسخ، وقد عقصت شعرها في غير اعتناء، ومسحت وجهها بمنشفة مبللة مسحة سريعة، لم تذهب بآثار البكاء وتقلصات الإرهاق.. فكانت تبدو كئيبة قبيحة.

وتطلعت إلى الطبيب في اكتئاب، فتراءت له محطمة ذليلة، ثم سألته:

– أين مستر دافيدسون؟

فقال في استياء:

– سيحضر توا إذا كنت تريدينه.. لقد أتيت لأطمئن إلى حالك.

– آه، أظنني بخير فلا تتعب نفسك من أجلي.

– هل تناولت طعاماً؟

– هل أحضر لي هورن بعض القهوة..

وكانت تنظر نحو الباب طيلة الوقت في ترقب ولهفة، وما لبثت أن سألته:

– أتظنه قادماً بعد وقت قصير؟ لقد أحسست أن همومي انقشعت وقد خف حملها حين كان معي..

– وهل سترحلين يوم الثلاثاء؟

– أجل، فهو يقول أن لابد لي من ذلك.. أرجو أن تسأله أن يأتي في الحال.. ليس بوسعك أن تسدي إلى خيراً، فهو الوحيد الذي في استطاعته أن يساعدني الآن.

الفصل التاسع

قضى المبشر أغلب وقته مع سادي تومسون خلال الثلاثة الأيام التالية فلا تراه زوجه وزميلاها إلا في أوقات الطعام.. ولاحظ الدكتور ماكفيل أنه كان لا يكاد يأكل شيئاً يذكر إذا جلس إلى المائدة مما دعا مسز دافيدسون إلى أن تقول في إشفاق:

– إنه ينهك نفسه.. وإذا لم ينتبه لذلك فإنه لن يلبث أن يسقط مريضاً.. ولكنه يأبى أن يريح نفسه..

ومع ذلك، فقد كانت هي الأخرى شاحبة اللون... وأخبرت مسز ماكفيل أنها لا تعرف للنوم طعماً، وأن المبشر حين يأوى إلى حجرتهما بعد أن يغادر غرفة مس تومسون في ساعة متأخرة من الليل لا يلجأ إلى مضجعه، بل يعمد إلى الصلاة حتى يبرح به التعب، فإذا استسلم للنوم بعد ذلك، فلساعتين فحسب، ثم ينهض فيخرج ليتنزه عند الخليج.. وكثيراً ما شكا من أحلام غريبة تراوده خلال نومه القصير..

واستطردت قائلة:

– .. في هذا الصباح، أخبرني أنه رأى في أحلامه جبال نبراسكا..

فقال الدكتور ماكفيل وهو ينصت إلى حديثها:

– ما أغربه من حلم..

وتذكر الطبيب أنه رأى هذه الجبال وهو يطل من نافذة القطار أثناء تجواله في أمريكا فبدت له ضخمة مستوية السفوح مستديرة القنن، تقوم في ارتفاع شبه عمودي على السهل الذي يحوطها..

وذكر بصفة خاصة أنها بدت له إذ ذاك كنهود النساء وقد نضجت في صدورهن.وما كان قلق دافيدسون وإسرافه في إرهاق نفسه بالشيء الذي يحتمله الآدمي، ولكنه كان يتجلد وفي نفسه غبطة غريبة عجيبة..كان يقتلع جذور آخر نباتات الخطيئة المنبثة في مجاهل أعماق تلك المرأة المتعوسة، فكان يقرأ معها بعض فصول الكتاب المقدس ويرتلان معاً آياته، ويصليان سوياً..

وقال لهم ذات أمسية وهم يتناولون العشاء:

– إنها معجزة رائعة.. إنه بعث جديد لعمر الحق..

لقد أصبحت روحها، التي كانت أشد ظلاماً من الليل، بيضاء ناصعة كالجليد عند تساقطه، إأن قلبي ليمتلئ رهبة وخشوعاً، كلما تأملت روعة توبتها ورجوعها عن خطاياها حتى أنني لأخال نفسي غير جدير بأن أمس ذيل ردائها.

فسأله الطبيب:

– وهل يرضيك بعد كل هذا أن تردها إلى سان فرانسيسكو.. أن تزج بها في سجن أمريكي ثلاث سنوات.. ظننتك ستجنبها هذا!

– أراك لا تفهمني كما ينبغي.. لابد من إرسالها إلى السجن، ولكن لا تخال أن قلبي لا ينزف دماً حسرة عليها، فإنني أحبها كما أحب زوجي وأختي.. لسوف أتعذب طيلة مدة سجنها وأعاني كل ما تعانيه هي من آلام.

فصاح الطبيب في ضيق:

– كلام فارغ..

– إنك لا تفهم، لأن الله أعمى بصيرتك.. لقد أثمت، فلا بد لها من العذاب كي تتطهر.. إنني أعرف وطأة ما ستعانيه.. ستعرف الجوع، وستلقي كل ضروب التعذيب والتحقير والإهانة، ولكني أريدها على أن تتقبل عقاب البشر كتضحية تقدمها لله تكفيراً عن ذنوبها..أريدها أن تتقبله راضية مسرورة. إن أمامها فرصة لا تعرض إلا للقليل منها. فإن الله كريم رحيم..

كان صوت دافيدسون يتهدج لفرط التأثر والتحمس حتى لقد تعذر عليه أن يلغط في وضوح، واستطرد يقول:

– إنني أصلي معها طيلة النهار، فإذا فارقتها، عاودت صلاتي بكل ما في من قوة وإيمان عسى أن يتولاها الله بعظيم رحمته.. إنني أبث في قلبها الرغبة التواقة إلى تلقي العقاب حتى نهايته.. الرغبة التي تجعلها ترفض إذا عفوت عنها وأبحث لها الذهاب حيث تشاء فتأبى أن تفر من العقاب.أريدها أن تشعر أن المرارة التي ستتحملها في عقاب السجن هي

الكفارة التي تطرحها عند أقدام، الذي بث فيها من روحه.

ومرت الأيام في تباطؤ واتئاد، وكل من في البيت يولون المرأة المسكينة المعذبة قصارى اهتمامهم، وهي تعيش في تحمس غير عادي لحياتها الجديدة.

كانت كفريسة تعد لتضحي قرباناً من أجل واثن معبود من أوثام الأقوام المتأخرة. وخدر الخوف أعصابها فلم تعد تطيق لدافيوسون بعداً عن بصرها، فما كانت لتجد الشجاعة الكافية إلا في وجوده معها، فتشبثت به في ذلة وعبودية..

وكانت تبكي كثيراً، وتعكف على الصلاة.. فإذا ما تولاها النصب، وبرح بها الإرهاق حتى يتبلد ذهنها، كان تفكيرها يتجه إلى العقاب الذي كان في انتظارها، كمخرج ومفر لها من العذاب النفساني الذي كانت تعانيه..

ولم تعد تحتمل ألوان الخوف المبهمة التي كانت تراود نفسها بعد توبتها.

وطرحت مع خطاياها كل رغبة لها في التجمل أو التبهرج، حتى لقد قضت أياماً أربعة بثوب واحد لا تغيره، حتى حجرتها تركتها دون عناية أو ترتيب.

وكانت الأمطار طيلة هذه الأثناء تنهمر في عنف وغزارة وتتابع مستمر، حتى لقد كان يخيل للمرء أن السماء لن تلبث أن تستنفد

ماءها.ولكنه لم ينفد، بل ظل يتدفق كالسيل، في تواصل يستثير الأعصاب ويقود المرء إلى حالة شبيهة بالجنون، يزيد من وطأتها طنين البعوض المزعج في ليالي الأرق..

وكان الجميع يترقبون يوم الثلاثاء الذي تصل فيه الباخرة الميممة شطر سان فرانسيسكو، في لهفة وتوجس راحا ينموان حتى جاوزا حدود الاحتمال..

أما الدكتور ماكفيل، فكانت رغبته في التخلص من هذه المرأة الشقية تطفي في نفسه كل شعور بالعطف نحوها أو الاستياء منها..

وكان يخال أنه لن يلبث أن يتنفس الصعداء إذا ما حملتها الباخرة مقلعة بها..

وأقبل في يوم الاثنين موظف من رجال مكتب المحافظ كان مقرراً أن يصحب سادي تومسون إلى سطح السفينة فأمرها أن تكون على أهبة الاستعداد في تمام الساعة الحادية عشرة من الصباح التالي..

وكان دافيدسون معها، فتولى عنها الإجابة قائلاً:

– سأعني بذلك بنفسي.. وسأصحبها إلى سطح الباخرة..

وعندما أطفأ الدكتور ماكفيل الضوء في حجرته –في ذلك المساء– وزحف إلى فراشه محكماً وضع الكنة حتى لا ينفذ البعوض خلال أطرافها، أرسل زفرة ارتياح طويلة.

وقال:

– الحمد لله إذ حانت النهاية، لسوف تكون بعيدة عن هنا في مثل هذا الوقت من الغد.

فقالت زوجته:

– ولسوف تسر بذلك مسز دافيدسون أيضاً، فهي تقول أن زوجها يرهق نفسه حتى نحل وأوشك أن يغدو كالشبح.. إنها امرأة من نوع آخر.. من؟

– سادي.. ما كنت أظن أبداً أن هذا التطور يحدث يوماً...

ولم يجبها ماكفيل، إذ كان قد استغرق في نعاس عميق لم يحظ به منذ زمن بعيد. واستيقظ في الصباح التالي إذ أحس بيد تستقر على ذراعه فتطلع ليرى هورن واقفاً بجوار الفراش.. وإذ رأى الرجل أنه استيقظ، وضع سبابته على شفتيه يحذره أن ينبس ببنت شفة وأشار إليه أن يتبعه..

وعجب الطبيب إذ رأى صاحب النزل في ثياب أهل الجزيرة وقد بدأ عليه انفعال وحشي طارئ، فنهض من فراشه..

وقاده هورن إلى الشرفة ثم همس له:

– لا تحدث صوتاً ينبه أحداً. هناك حاجة إليك، فارتد معطفك وحذائيك واتبعني.. أسرع.

وظن ماكفيل في بادئ الأمر أن شيئاً قد أصاب مس تومسون فهتف:

– ماذا حدث؟. هل أحمل معي أدواتي الطبية؟

ولكن الرجل أجابه:

– أسرع من فضلك.. أسرع.

وعاد الدكتور ماكفيل إلى الحجرة، فارتدى معطفه فوق ملابس النوم، ووضع قدميه في حذاءين من المطاط، ولحق يصاحب المنزل.. فراحا يهبطان السلم سوياً على أطراف أقدامهما.. وكان الباب المفضي إلى الطريق مفتوحاً، وقد وقف عنده عدد من الأهالي.

وعاد الطبيب يسأله:

– ماذا حدث؟

فقال هورن:

– تعالى معي..

وخرج مغادراً المنزل والطبيب في أثره.. والأهالي يتبعونهما.. فاجتازوا الطريق حتى أتوا إلى الشاطئ حيث رأى الطبيب جماعة أخرى من الأهالي.. يقفون حول شيء طاف عند حافة الماء.. فجدوا في السير حتى وصلوا إليهم.. فأفسح هؤلاء ثغرة للطبيب مر خلالها وصاحب المنزل يدفعه إلى الأمام..

ورأى إذ بلغ حافة الماء.. منظراً رهيباً مفزعاً.. رأى جثة دافيدسون وقد غاص نصفها في الماء. وبرز النصف الآخر فوق السطح.. وانحنى

الطبيب.. وقلب الجثة.. فما كان بالرجل الذي يفقد رباطة جأشه أمام مثل هذا المنظر.. وراعه أن رأى عنق المبشر قد قطع قطعا فظيعا، امتد من إحدى أذنيه إلى الأذن الأخرى.. وكشف في اليد اليمنى، النصل الذي أحدث هذا القطع.

وقال الطبيب أخيراً:

– إن الجثة باردة، فلابد أنه مات منذ وقت ليس بالقصير.

لقد رآه أحدهم وهو منطلق إلى عمله في الصباح فأقبل وأخبرني. أتظنه انتحر بيده؟.

– أجل فليذهب أحدكم وليستدع البوليس.

فتحول هورن إلى من حوله، وقال شيئاً باللغة الوطنية، وسرعان ما برز شابان من الجمع.. فسارا نحو البلدة مسرعين..

وعاد الطبيب يقول:

– ينبغي أن تتركه هنا حتى يقدم رجال البوليس.

فصاح صاحب المنزل:

– أرجو أن لا ينقل إلى بيتي.. لن أقبله في نزلي.

فأجابه الطبيب بحدة:

– لسوف تخضع لأوامر السلطات إذا سمحت هذه بنقله إلى نزلك.. وإن كنت أتوقع أن ينقل إلى المشرحة.

ووقفوا في تلك البقعة ينتظرون.. وأشعل صاحب النزل سيجارة.. وقدم للطبيب أخرى وراحا يدخنان وهما يطيلان تأمل الجثة، وأخذ الطبيب يستعرض في ذهنه كل ما مضى من حوادث.. يحاول أن يصل إلى السر الذي دعا إلى هذه النهاية الأليمة.. ولكنه عبثا حاول الاهتداء..

وقال هورن يسأله:

– وما الذي يدعوك إلى أن تظن أنه انتحر؟

فهز الطبيب كتفيه.. وآثر أن يبقى على صمته..

وأقبل نفر من البوليس المحلي بعد قليل.. تحت رئاسة جندي بحري.. يحملون محفة.. وإن هي إلا دقائق حتى لحق بهم ضابطان وطبيب بحري،فعاينوا الجثة ومكان الحادث في كثير من المبالاة أو الاهتمام..

وما لبث أحد الضابطين أن تساءل:

– وهل علمت زوجه بالحادث؟

فأجابه ماكفيل:

– أما وقد جئتم فسأعود إلى النزل لارتدي ملابسي.. وسأتدبر أمر إبلاغها الخبر .. وأرى أنه لا يحسن أن تفاجأ بمنظره الآن..

فقال الطبيب البحري:

– هذا صحيح.. وأقرك عليه.

وعندما عاد الدكتور ماكفيل إلى النزل.. وجد زوجه قد أتمت ارتداء ملابسها.. فبادرته عندما نفذ إلى حجرتهما.

– إأن مسز دافيدسون في قلق كبير من أجل زوجها.. فهو لم يأو إلى فراشه طيلة الليل.. وقد سمعته يغادر حجرة مس تومسون في الساعة الثانية.. ولكنه لم يصعد إلى حجرتهما.. بل غادر النزل، ولا شك أن التعب يكون قد برح به لو أنه كان يسير في أرجاء الجزيرة طوال هذه الساعات..

فراح الدكتور ماكفيل يقص عليها ما حدث، حتى إذا فرغ.. رجاها أن تحمل النبأ إلى مسز دافيدسون.

فصاحت وقد نال الفزع منها:

– ولكن. لم فعل بنفسه ذلك؟

– لست أدري...

– ولكنني لا أستطيع إنهاء الخبر إليها... لا... لا أستطيع..

– بل يجب أن تفعلي..

فرمقته والذعر يطغى في نظراتها، ثم غادرت الحجرة.. وظل ينصت إلى

خطواتها حتى وصلت إلى حجرة مسز دفيدسون ودخلتها.. وتريث بضع دقائق ريثما تمالك جأشه، ثم تحول يحلق ذقنه ويغتسل، وأسرع بعد ذلك يرتدي ملابسه. فلما تم ارتداءها، جلس على حافة الفراش، يترقب عودة زوجه في قلق..

وعادت مسز ماكفيل أخيراً، فقالت له في اقتضاب:

– إنها ترغب في أن تراك.

قال:

– لقد حملوه إلى المشرحة، ويجدر أن نصحبها إلى هناك.. ترى كيف تلقت النبأ المروع؟

– لكأني بها صعقت، أو أن الصدمة أذهلتها حتى أفقدتها الحس، فهي لم تبك أو تصرخ ولكنها راحت ترتجف في عنف، كورقة الشجرة في مهب الريح..

– إذن يحسن بنا أن نسرع إليها في الحال..

وإذ طرقا باب حجرة مسز دافيدسون يستأذناها في الدخول، خرجت إليهما بنفسها فإذا بها مفرطة الشحوب، وإن بدت عيناها جافتين لا أثر للدموع فيهما.. ولاح هدوؤها للطبيب غير طبيعي، مما أقلقه.

ولم يتبادل ثلاثتهم كلمة واحدة، بل تحولوا يغادرون النزل في صمت، ويقطعون الطريق إلى مبنى المشرحة، فلما بلغوها تكلمت مسز دافيدسون لأول مرة وقالت:

– دعوني أدخل وحدي لأراه!

فتنحيا جانبا، بينما فتح لها الباب أحد الخدم الوطنيين، ثم أغلقه خلفها حين دخلت.. وفيما كان الزوجان يجلسان في انتظارها، تقدم اثنان من البيض يسألان الطبيب في أصوات خافتة.. هي أقرب إلى الهمس فقص عليهما كل ما عرفه عن المأساة.

الفصل التاسع

فتح الباب أخيراً في سكون وخرجت منه مسز دافيدسون فركن ماكفيل وزوجه إلى الصمت والوجوم.. وتقدمت منهما قائلة في هدوء:

– هيا بنا نعود..

وكان صوتها حاداً رصينا.. وعجز الدكتور ماكفيل عن إدراك كنه النظرة التي في عينيها. وتراءى له وجهها الشاحب عابساً شديد التجهم.

وسار الثلاثة على مهل واتئاد عائدين إلى النزل، وقد ألجم الموقف ألسنتهم فلم يحاول أحدهم أن ينبس ببنت شفة. وأقبلوا أخيراً على المنعرج الذي يفضي إلى الطريق التي يقوم النزل في طرفها البعيد..

وفجأة ندت من مسز دافيدسون شهقة منكرة، وتوقف الثلاثة عن السير وقد عراهم جمود مباغت، فقد خرق أسماعهم صوت ما كانوا ليصدقوا أنهم قد يسمعونه.

كان الحاكي الذي ظل صامتاً أياماً طويلة قد عاد يبعث في الجو أنغامه..

أجل كان الحاكي الذي أخرسته مس تومسون طيلة الأيام التي تابت فيها واعتزمت أن تكفر عما أتت في ماضيها من ذنوب قد عاد يشيع في الهواء ألحانه..

وأي ألحان..؟

ألحان عالية.. خليعة.. مستهجنة..

وصاحت مسز ماكفيل في جزع:

– ما هذا؟

ولكن مسز دافيدسون لم تعلق على المفاجأة، بل تمالكت نفسها وقالت:

– فلنمض في طريقنا إلى النزل..

ووصلوا إلى النزل فولجوه ونفذوا إلى الفناء، وإذا بهم يلقون مس تومسون وقد وقفت لدى باب حجرتها تتجاذب الحديث مع أحد الملاحين.. وبدا أن تغيرا طارئاً سريعاً قد ألم بها..

لم تعد تلك الذليلة المسكينة التي كانتها طيلة الأيام الأخيرة بل ظهرت أمامهم وقد اتخذت أبهى زينتها وارتدت ثوبها الحريري وحذاءيها اللامعين ذوي الكعبين العاليين، وجوربيها القطنيين الأبيضين.. وكان شعرها معقوصاً في عناية وإتقان، تعلوه قبعتها العريضة الحواف المزينة بالأزهار في ذوق ناب سخيف..

أما وجهها فكان مختفياً وراء طبقة من الأصباغ الكثيفة، وكانت عيناها مكحلتين وشفتاها تحملان صبغة قرمزية مفرطة..

واعتدلت إذ رأتهم، وتبدت كما كانت حين عرفوها أول مرة الغانية المستهترة.. المعتدة بنفسها.

وإذ اقتربوا من بابها انفجرت في ضحكات عالية خليعة مستهجنة، حتى إذا غدت مسز دافيدسون على قيد خطوة منها أمسكت عن الضحك فجأة واستجمعت كل ما في فمها من لعاب، فأطلقته من فيها كالقذيفة، نحو وجه مسز دافيدسون..

وتراجعت مسز دافيدسون وقد تضرجت وجنتاها لفرط الغضب والانفعال، ثم غطت وجهها براحتيها واندفعت تجري نحو السلم تصعده مسرعة..

وثار الغضب محتدماً في صدر ماكفيل حتى أنساه كل عطف استشعره من قبل نحو البغي.. فتقدم من المرأة فدفعها على حجرتها ودخل خلفها صائحاً:

– ما هذا الذي تفعلين؟ أسكتي هذه الآلة اللعينة..

ولم ينتظر حتى تجيبه.. بل تقدم بنفسه إلى الحاكي.. فانتزع عنه "الأسطوانة" دون أن يعبأ بها..

وتحولت المرأة نحوه صائحة:

– مهلاً يا دكتور.. ما هذه المعاملة التي تبادرني بها.. وما الذي تفعله في حجرتي؟

فالتفت إليها وصاح:

– ماذا تعنين؟ ماذا تقصدين؟.

فاستجمعت قواها وتحفزت وكأنها توشك أن تخوض معركة.. وما كان في وسع امرئ أن يصف ما ارتسم على وجهها من معالم الازدراء. ولا ما تبدي في لهجتها من حقد طاغ وكراهية عمياء مريرة وهي تصيح:

– يا لكم –يا معشر الرجال– من مخلوقات قذرة! خنازير حقيرة.. كلكم سواء.. كلكم على شاكلة واحدة.. خنازير.. خنازير..!

فلم يتمالك الطبيب أن شهق في جزع.. فقد أدرك كل شيء.. أدرك الحقيقة التي ما كانت لتخطر له ببال أو لزوجه أو لمسز دافيدسون أو لصاحب النزل، بل ولا لأي مخلوق عرف المبشر الراحل..

أدرك أن دافيدسون قد تدله في حب هذه المرأة، بقدر ما غالى في اضطهادها..

أدرك أن دافيدسون كان يلقي بنفسه بين أحضان المعصية في الوقت الذي كان يجاهد فيه لإنقاذ هذه المرأة من براثنها.

وأدرك أن الرجل الذي كافح لينقذ البغي من ظلمات الإثم، وليطهرها من أدران الرذيلة، قد وهن منه العزم في نهاية الصراع.. فاستسلم هو نفسه للخطيئة..

ثم أبت عليه نفسه بعد ذلك إلا أن يكفر عن ذنبه بدمه.

الفهرس